الحياة الاجتماعية في الأندلس عصري الطوائف والمرابطين من خلال نوازل ابن الحاج القرطبي (ت ٥٢٩هـ/١١٣٤م)

دكتور

محمد ثروت محمود عبدالقادر

قسم التاريخ والحضارة

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر - الزقازيق - مصر

الملخـــص

تضمنت كتب النوازل الفقهية العديد من القضايا والمسائل المتعلقة بشئون المجتمع، ويعد كتاب " نوازل ابن الحاج " لمؤلفه ابن الحاج التجيبي القرطبي(ت ٥٢٩هـ/١١٣٤م) من أهم كتب النوازل في الغرب الإسلامي، حيث يجمع النوازل والفتاوى من القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري/ الحادي والثاني عشر الميلادي، وكان لنوازله قيمة علمية في حلول كثير من قضايا ومشكلات عصره في الأندلس، لا سيما أن صاحبها كان شاهداً على هذا العصر في فترة الانتقال من حكم الطوائف إلى المرابطين، وعرف ابن الحاج بعلو الهمة والمكانة العالية وتقلده لمنصب القضاء والإفتاء، وتكمن أهمية وقيمة هذه الفتاوى في استناد صاحبها على أمهات كتب الفقه المالكي، فضلاً عن استناده إلى فتاوى فقهاء عصره "كابن رشد" وغيره، وثناء معاصريه له من العلماء والفقهاء وتلاميذه أشهرهم الفقيه القاضي "عياض" والحافظ " ابن بشكوال".

ونظراً لأهمية كتاب "نوازل ابن الحاج" وما يحتويه من قضايا تعالج الكثير من الجوانب في تاريخ الغرب الإسلامي عامة والأندلس خاصة؛ في ضوء ذلك يرصد هذا البحث دراسة الحياة الاجتماعية في الأندلس خلال عصري الطوائف والمرابطين، وقد رصدت نوازل ابن الحاج عدداً من الإشارات المهمة والنصوص والوثائق التي قلما ترد في المصادر التاريخية، والتي تعبر عن قضايا أحوال المجتمع وطبقاته وفئاته وطوائفه في المدن والقرى، بجانب الرعاية الاجتماعية والعادات والتقاليد التي تمثلت في قضايا الأسرة، وما يتعلق أيضاً بالتبادل التجاري في المجتمع والعمران، وهو ما سنوضحه خلال صفحات هذا البحث، والله الموفق.

الكلمات المفتاحية: النازلة، المجتمع الأندلسي، التسامح الديني، الفقهاء، الوظائف، الأوقاف.

دكتور

محمد ثروت

قسم التاريخ والحضارة -كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر- الزقازيق - جمهورية مصر العربية

mohamedtharwat.25@azhar.edu.eg

Abstract

The books of jurisprudential Elnawazel included many issues and issues related to the affairs of society, The book 'Nawazel Ibn al-Hajj' by Ibn al-Hajj al-Tajibi al-Qurtubi (d. 529 AH / 1134 AD) is one of the most important books of Elnawazel in the Islamic West, where it collects Elnawazel and fatwas from the fifth and early sixth centuries AH / first and twelfth century AD, and his Elnawazel had a scientific value in solving many of the issues and problems of his time in Andalusia, especially since its owner was a witness to this era in the period of transition from the rule of sects to The Almoravids and value of these fatwas lies in the reliance of their author on the mothers of Maliki jurisprudence books, as well as based on the fatwas of the jurists of his time 'such as Ibn Rushd' and others, and the praise of his contemporaries of scholars and jurists and his students, the most famous of which is the jurist 'Judge Ayyad', and Hafiz 'Ibn Bashkwal'.

In view of the importance of the book 'Nawazel Ibn al-Hajj' and the issues it contains that address many aspects in the history of the Islamic West in general and Andalus in particular, in light of this, this research monitors the study of social life on Andalus during the eras of sects and Almoravids, Nawazel Ibn al-Hajj has monitored a number of important references, texts and documents that are rarely contained in historical sources, which express the issues of the conditions of society, its classes, groups and sects in cities and villages, as well as social welfare and customs and traditions represented in family issues, And also related to trade exchange in society and urbanization, which we will explain during the pages of this research, and God bless.

Keywords: Nazla, Andalusian society, religious tolerance, jurists, jobs, endowments.

Dr
Mohamed Tharwat
Department of History and Civilization.
Faculty of Arabic Language,
Al Azhar University, Zagazig, Egypt.
E-mail: mohamedtharwat.25@azhar.edu.eg

المقدمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى وآله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى، صلاة وسلامًا دائمين متلازمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وبعد،،،

فاهتمت المصادر التاريخية والحضارية ببعض الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في رصدها للأحداث، وصمتت عن الكثير من الموضوعات المهمة إما لإهمالها تلك الموضوعات أو لغيابها؛ مما ترك كثيراً من الثغرات والجوانب الغامضة فيما وصل إلينا من الكتابات التاريخية، وأوجد العديد من التساؤلات لدى الباحثين، لذلك كان لابد من البحث عن مصادر جديدة ومختلفة تسد الثغرات وتكشف الغموض عن تلك الموضوعات، ومن تلك المصادر المؤلفات الفقهية ومنها كتب النوازل، أوما يسمى أيضاً بالفتاوى أو الأجوبة أو المسائل أو الأحكام، وهي قضايا ومشكلات حدثت بالفعل تعبر عن واقع المجتمع نتيجة لتغير أحوالهم وظروفهم، وقد عُرضت هذه القضايا على الفقهاء والقضاة لإعطاء الحكم الشرعي والفصل فيها.

ويعد كتاب "نوازل ابن الحاج[1] " لمؤلفه ابن الحاج التجيبي القرطبي(ت ٥٢٩هـ/١١٣٤م) من أهم كتب النوازل في الغرب الإسلامي، وتكمن أهمية البحث في أنه يتضمن قضايا تعالج الكثير من

(١) ابن الحاج: أبو عبدالله محمد بن أحمد بن الحاج التجيبي القرطبي(ت٥٢٩هـ/١١٣٤م): نوازل ابن الحاج التجيبي، دارسة وتحقيق: أحمد شعيب اليوسفي، الطبعة الأولى، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تطوان، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م، ج١، ص١.

الجوانب في تاريخ الغرب الإسلامي عامة والأندلس خاصة؛ وتعد النصوص التي أوردها ابن الحاج في نوازله قد عبرت عن مظاهر التحولات السياسة داخل المجتمع الأندلسي، وذلك في كيفية التعامل السياسي والفقهي مع ميراث ملوك الطوائف، وهي من الأمور المهمة أثناء قيام أنظمة سلطانية جديدة تتجدد معها العقود والوثائق والأحكام بحسب ظروف كل عصر، وقد تفردت نوازل ابن الحاج عن غيرها من النوازل على المستوى التوثيقي بنقلها النصوص الأصلية لعدد من العقود التي يعود تاريخها إلى عصري الطوائف والمرابطين، نظراً لقلة هذه النصوص في المصادر التاريخية الأندلسية الأخرى من حيث الوثائق الاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

وقد أظهر ابن الحاج موقفه في حسم القضايا من خلال النوازل والفتاوى من واقع المجتمع الذي عاصره، وكشف لنا عن التدرج الطبقي من خلال طبيعة الشرائح الاجتماعية، واستغلال النفوذ والتسلط في استعمال السلطة، وإظهار دور أهل الذمة ومكانتهم في الحياة الاجتماعية، بالإضافة إلى رصده للظواهر والعادات والتقاليد الاجتماعية في الأندلس من خلال الحياة الأسرية والرعاية الاجتماعية والأوقاف، واستنكاره لبعض مظاهر الانحلال الخلقي في المجتمع. في ضوء ذلك يرصد هذا البحث دراسة الحياة الاجتماعية في الأندلس عصري الطوائف والمرابطين.

أهداف الدراسة:

يهدف البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

(١) الوقوف على طبيعة الشرائح الاجتماعية والمستوى المعيشي في المجتمع الأندلسي خلال عصري الطوائف والمرابطين، ومدى

إسهاماتهم الحضارية بما حوته من دلالات اقتصادية وسياسية وثقافية للمجتمع خلال الحقبة التاريخية.

(٢) رصد إسهامات العلماء والفقهاء والقضاة ومدى التزامهم وتدخلهم في حسم قضايا ومشكلات المجتمع الأندلسي.

(٣) إبراز دور المرأة الأندلسية واسهاماتها وتأثيرها داخل الحياة الأسرية، وحضورها القوي في كثير من الأحوال والأوضاع الاجتماعية.

(٤) رصد إسهامات الأندلسيين في تحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي من خلال الخدمات والرعاية الاجتماعية داخل المجتمع، بجانب التسامح الديني بين المسلمين والنصارى، في شئون ومظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة.

منهج الدراسة:

ارتكزتُ في الدراسة على المنهجين الوصفي، والتحليلي الاستقرائي، من خلال النصوص الواردة في نوازل وفتاوى ابن الحاج، والربط والاستنتاج من خلال كتب النوازل والمصادر التاريخية والحضارية المختلفة، وقسمت الدراسة إلى؛ مقدمة وثلاثة مباحث، وخاتمة، وثبت المصادر والمراجع، وقد تناولت في المقدمة: الحديث عن أهمية الموضوع ودوافع الكتابة فيه وأهدافه، عرضت في المبحث الأول " سيرة ابن الحاج"، أشرت فيه إلى اسمه ومولده ونشأته، وشيوخه، وتلاميذه، وآثاره ومؤلفاته، وذكرت مكانته العلمية وثناء العلماء عليه، ووظائفه، ووفاته، وركزت اهتمامي في المبحث الثاني على دراسة " الطبقات الاجتماعية في الأندلس من خلال نوازل ابن

الحاج " وفيه: ألقيت الضوء على طبقات المجتمع وطوائفه؛ وتحدثت في المبحث الثالث عن " المظاهر الاجتماعية في الأندلس من خلال نوازل ابن الحاج" وتناولت الحديث عن الأسرة الأندلسية وأهم المشكلات، ودور المرأة في المجتمع، والرعاية الاجتماعية والأوقاف، والعادات والتقاليد والأعراف، وبعض مظاهر الانحلال الخلقي في المجتمع الأندلسي؛ وختمت الدراسة بذكر أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، ثم ثبت المصادر والمراجع.

المبحث الأول

سـيرة ابن الحـاج

أولاً: الاسم والمولد والنشأة:

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبي، المعروف بابن الحاج القرطبي[1]، ولد بقرطبة[2] سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م، وبها نشأ واستقر[3]، ولم تزودنا المصادر بأخبار عن حياة

(١) القاضي عياض: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي(ت٥٤٤هـ/١١٤٩م): الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق: ماهر زهير جرار، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٤٧؛ ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبدالملك(ت٥٧٨هـ/ ١١٨٢م): الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تحقيق: بشار عواد معروف، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٠م، ج٢، ص٢١٦.

(٢) قرطبة (Cordoba): مدينة حصينة قديمة من أعظم مدن الأندلس وقاعدتها، ومُستقر حكم الأمويين في الأندلس، تقع شرق مدينة جيان وغرب اشبيلية، ومن الجنوب على ضفة نهر الوادي الكبير، وبها المسجد الجامع ، تجبى إليها ثمرات وخيرات كل ناحية، ابن غالب: محمد بن أيوب الغرناطي(كان حياً في ق٦هـ/ ق١٢م): نص أندلسي جديد قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة، نشر: لطفي عبدالبديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة، المجلد الأول، الجزء الثاني، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م، ص٢٩٥؛ الحميري: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم(ت ٨٩٩هـ/١٤٩٤م): صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر: ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص١٥٣- ١٥٨.

(٣) القاضي عياض: الغنية، ص٤٨؛ ابن بشكوال: الصلة ، ج٢، ص٢١٧.

ابن الحاج القرطبي، غير أنها أشارت إلى أنه ينتسب إلى بيت اشتهر أفراده بالعلم والفضل والصلاح [١].

ثانياً: شيوخه:

كانت الأندلس تزخر بكوكبة من مشاهير العلماء الموسوعيين في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وقد برز كثير منهم في العلوم كافة، وقد تلقى ابن الحاج العلم على يد أبيه[٢]، ثم نال قسطاً من العلوم من علماء عصره؛ واعتنى بالفقه والحديث والأحكام وعلوم اللغة والآداب والسير والأخبار، فأثروا في تكوينه العلمي، وقد بلغ عدد شيوخه بالإجازة، والسماع، عدداً كبيراً[٣].

ومن أبرز شيوخ ابن الحاج نذكر منهم: الشيخ أبو جعفر أحمد بن محمد بن رزق الأموي القرطبي(ت٤٧٧هـ/١٠٨٤م) شيخ المالكية بالأندلس[٤]، والمقرئ المحدث أبو القاسم خلف بن رزق الأموي القرطبي(ت٤٨٥هـ/١٠٩٢م) [٥]، وتأدب وسمع من الشيخ أبي مروان عبدالملك بن سراج (ت٤٨٩هـ/١٠٩٦م) إمام اللغة والحديث بالأندلس[٦]، وسمع من الفقيه أبي القاسم خلف بن عبدالله بن سعيد بن

(١) ابن الحاج: نوازل، ج١، ص٤١، ٤٢؛ ج٢، ص١٣١؛ ١٣٣؛ ابن الأبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي البلنسي(ت٦٥٨هـ/١٢٦٠م): معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م؛ ص١٨٤، ١٨٥.

(٢) ابن الحاج: نوازل، ج١، ص٤٠.

(٣) القاضي عياض: الغنية، ص٤٨؛ ٥١، ٥٢؛ ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص٢١٧.

(٤) القاضي عياض: الغنية، ص٤٧؛ ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص١٠٩.

(٥) ابن الحاج: نوازل، ج١، ص٥١؛ ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص٢٤٠.

(٦) القاضي عياض: الغنية، ص٤٧؛ ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص٤٥٩، ٤٦٠.

مُـدير الأزدي (ت٤٩٥هـ/١١٠١م) الخطيـب بالمسـجد الجـامع بقرطبـة[١]، والإمـام الحـافظ الفقيـه أبـي عبـدالله محمـد بـن فـرج القرطبي(ت٤٩٧هـ/١١٠٣م) المعروف بابن الطلاّع [٢]، وسمع الكثير مـن الشـيخ أبـي علـي الحسـين بـن محمـد بـن أحمـد الغسـاني الجيـاني (ت٤٩٨هـ/١١٠٤م) رئيس المحدثين بقرطبة، وقد تلقى عنه ابن الحـاج كتاب "الجامع الصحيح للبخاري" [٣]، والفقيه المقرئ أبي الحسن علـي بـن خلـف بـن ذي النـون العبسـي القرطبـي (ت٤٩٨هـ/١١٠٤م)[٤]، وروى عـن الفقيـه أبـي عمـر أحمـد بـن خلـف الأمـوي القرطبـي (ت٤٩٩هـ/١١٠٥م)[٥]، والفقيه الحافظ أبـي علـي حسين بن محمد بن فِيرُّة بـن حيّـون الصـدفي(ت٥١٤هـ/١١٢٠م) المعـروف بـابن سُـكَّرَةَ السرقسطي[٦]، وغيرهم [٧].

ثالثاً: تلاميـذه:

كانت حياة ابن الحاج حافلة بالفتوى والتدريس والتأليف، وبدأ في ممارسـة نشـاطه التعليمـي بقرطبـة، وقـد ذاع صـيته، فـلازم كثيـر مـن

(١) القاضي عياض: الغنية، ص٤٧؛ ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص٢٤١، ٢٤٢.
(٢) القاضي عياض: الغنية، ص٤٧؛ ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص١٩٧، ١٩٨؛ ٢١٧.
(٣) ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص٢٠٣، ٢٠٤.
(٤) القاضـي عيـاض: الغنيـة، ص٤٧؛ ابـن بشـكوال: الصـلة، ج٢، ص٤٠؛ ابـن خيـر الإشبيلي: أبو بكر محمد بن خير بن عمر(ت ٥٧٥هـ/١١٧٩م): فهرسة ابن خير الإشبيلي، تحقيق: بشار عواد معروف، محمود بشار عواد، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠٠٩م، ص٢٣٤.
(٥) ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص١١٨.
(٦) ابن الحاج: نوازل، ج١، ص٤٧، ٤٨؛ ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص٢٠٥.
(٧) ابن الحاج: نوازل، ج١، ص٤٨؛ ٥٢؛ القاضي عياض: الغنية، ص٤٧.

طلاب العلم دروسه الفقهية، وقد تتلمذ على يديه بالسماع والإجازة جمع كثير من طلبة العلم، وبه تخرجوا حتى صار بعض هؤلاء الطلاب شيوخاً كبارا ومن أعلام الفقهاء بالأندلس والمغرب في حياته وبعد مماته، أما عن أشهر تلاميذ ابن الحاج نذكر منهم: الفقيه القاضي أبو الفضل عياض السبتي(ت٥٤٤هـ/١١٤٩م) كان أكثر تلامذته عرفاناً بفضله وملازماً له، ويذكر القاضي عياض عن شيخه ابن الحاج قائلاً " قرأت عليه في داره بقرطبة جميع كتاب غريب الحديث لأبي محمد بن قتيبة، وعارضت كتابي بكتابه" [(١)]، وكذلك الفقيه أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي(ت٥٧٥هـ/١١٧٩م) الشهير "بفهرسته"[(٢)]، والإمام الحافظ خلف بن عبدالملك بن بشكوال القرطبي(ت٥٧٨هـ/١١٨٢م)[(٣)]، وغيرهم [(٤)].

رابعاً: آثاره ومؤلفاته

كان لابن الحاج دور مهم في إثراء الحياة العلمية في الأندلس، وقد أثر فيها عن طريق تتلمذ طلاب العلم عليه من الأندلس والمغرب، أو الذين رحلوا إليه ونشروا علمه، أما عن مؤلفات ابن الحاج فهناك العديد من المؤلفات التي وردت عند بعض من ترجموا له[(٥)]، وقد أشار محقق كتاب نوازل ابن الحاج في معرض حديثه أن هذه المؤلفات لم

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٣١؛ ١٣٣؛ القاضي عياض: الغنية، ص٤٨.
(٢) ابن خير الإشبيلي: فهرسة، ص٢٣٤، ٢٣٥؛ ٢٤٧.
(٣) ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص٢١٧.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج١، ص٥٦- ٦٠.
(٥) ابن الحاج: نوازل، ج١، ص٧٣، ٧٤، ٧٥؛ القاضي عياض: الغنية، ص٤٨؛ ابن بشكوال: الصلة ، ج٢، ص٢١٧.

يَبْـق منهـا سـوى كتابـان الأول: كتـاب" المنهـاج فـي مناسـك الحـج"، والثاني: كتاب " نوازل الأحكام" المعروف بنوازل ابن الحاج [١].

وهو موضوع هذه الدراسة، وتكمن قيمة وأهمية كتاب نوازل ابن الحاج في أنه كان شاهد عيان على أحداث عصره في الأندلس آنذاك، حيث تمدنا هذه النوازل بالنصوص الفقهية التي تخدم المكتبة التاريخية، وقد كشف لنا عن بعض القضايا التي همَشها المؤرخون من بينها المعاملات والمظاهر الاجتماعية داخل الأسرة والمجتمع ككل، وقد كان لابن الحاج منهجية في تناوله للنوازل تتميز بالشمولية واجتهاده الفقهي مما أكسب رواياته طابعاً من الواقعية والصدق والمرونة، حيث أنه لم يذكر أحداثاً سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية بتفاصيلها الدقيقة، كما نجدها والمتعارف عليها في المصادر التاريخية، من ذكر للحدث وتاريخ حدوثه، وسرد لأسماء الشخصيات، أو سير الملوك وأعمالهم في كافة الجوانب السياسية والادارية والاجتماعية والثقافية.

وقد احتوى الكتاب على العديد من المسائل وتضمنت (٧٨٣) مسألة، وجُهت إلى الإمام الفقيه القاضي ابن الحاج القرطبي، أجاب عنها بأجوبة متقنة وساقها على نسق وردها عن سائلها، ولم تخلو تلك الاجابات من الاستطراد والشروح والتي يسهب في تحليلها من خلال مدونات الفقه المالكي[٢]، وعلى الرغم من اعتماد ابن الحاج في نوازله على مذهب الإمام مالك، إلا أنه تطرق في كثير من أجوبته إلى آراء المذاهب الأخرى، كآراء الإمام الأوزاعي[٣]، والليث

(١) ابن الحاج: نوازل، ج١، ص ٧٦.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٠٦؛ ١٢٨.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٦٢٥.

بن سعد[١]، وأبي حنيفة النعمان[٢]، وأحمد بن حنبل[٣]، كما يعتمد على الآراء التي وافقت رأي مالك من المذاهب الأخرى كمذهب الشافعي[٤]، وغيرها من الآراء في المذاهب الأخرى[٥]، ومن الواضح أن اختلاف المذاهب لم يكن عائقاً حينذاك، وليس ببعيد أن يكون ابن الحاج قد أخذ من عدة مصادر أخرى في تأليفه مما لم يصل إلينا.

خامساً: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

يعد ابن الحاج شيخ الأندلس ومفتيها وقاضي الجماعة بها من كبار فقهاء دولة المرابطين[٦]، واختص ابن الحاج بصحبة العلماء ومنهم العالم الفقيه القاضي الإمام أبي الوليد محمد [٧] بن رشد [٨]، واستكمل ابن الحاج تحصيله العلمي سماعاً وإجازة على يد والده وشيوخه، حتى بلغ الغاية في العلوم، وقد أثنى عليه العديد من علماء

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٧٥؛ ٦٢٥.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٩٧؛ ج٣، ص٤٤٠؛ ٦٢٥.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥١٥؛ ٥٥٨.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٩٧؛ ج٣، ص٤٣٤؛ ٤٣٧؛ ٤٩٦؛ ٥٥٧؛ ٥٧٥؛ ٦٢٥.
(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٩٧؛ ج٣، ص٤٩٨؛ ٥٥٧.
(٦) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢١؛ ١٤٠؛القاضي عياض: الغنية،ص٤٧؛ابن بشكوال: الصلة،ج٢،ص٢١٧.
(٧) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد الجد، الإمام العلامة شيخ المالكية وقاضي الجماعة بقرطبة، كان فقيها عالماً، حافظا للفقه، مقدما فيه على جميع أهل عصره، عارفا بالفتوى، بصيراً بأقوال أئمة المالكية وعلم الفرائض والأصول، ومن أهل الرياسة في العلم، سار في القضاء بأحسن سيرة، ومن تصانيفه كتاب" المقدمات، و" شرح العتبية" و" البيان والتحصيل" و" الفتاوى" وتوفي سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م، القاضي عياض: الغنية، ص٥٤؛ ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص٢١١، ٢١٢، ٢١٣.
(٨) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٧؛ ج٣، ص٥٤٥.

عصره وأصحابه وتلامذته، ومنهم تلميذه القاضي عياض قائلاً:" كان حسن الضبط جيد الكتب كثير الرواية له حظ من الأدب، مطبوعاً في الفتيا مقدماً في الشورى، صليب الدين متواضعاً مُتسمِّتاً حليماً" (١)، وذكر أيضاً: " وكانت أمور الأندلس الكبار قد صَرفَها إليه أميرُ المسلمين أيام قضائه وفتواه واعتمد على فتواه بعد وفاة ابن رشد صاحبه" (٢)، ووصفه ابن بشكوال:" من جِلّةِ الفقهاء وكبار العلماء، معدوداً في المحدثين والأدباء، بصيراً بالفتيا، رأسا في الشورى، وكانت الفتوى في وقته تدورُ عليه لمعرفته

وثقته وديانته " (٣)، وقد ذكر ابن خير الإشبيلي قائلاً: " كان واسع الاطلاع على مؤلفات معاصريه وسابقيه " (٤)، فضلاً عن مؤلفي كتب النوازل الذين استندوا إلى فتاويه ومنهم الونشريسي قائلاً:" صرح بذلك الفقيه الشهير ابن الحاج"(٥).

سادساً: وظائفه

تقلد ابن الحاج منصب القضاء بقرطبة مرتين من سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م، وظل فيه إلى سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م، وبعد وفاة ابن رشد الجد تولى ابن الحاج قضاء الجماعة بقرطبة من سنة

(١) القاضي عياض: الغنية، ص٤٧.
(٢) القاضي عياض: الغنية، ص٤٨.
(٣) ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص٢١٧.
(٤) ابن خير الإشبيلي: فهرسة، ج١، ص١٥٤، ١٥٥.
(٥) الونشريسي: أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبدالواحد التلمساني المالكي (ت٩١٤هـ/١٥٠٨م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف: د محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية، الرباط، المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م،ج٦، ص٤٧٤.

٥٢٠هـ/١١٢٦م، إلى سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م[١]، ويبدو أنه عَزف عن قبول منصب القضاء في المرة الأولى، ثم أُجبر عليها في المرة الثانية ولم يزل في القضاء حتى توفي، وبجانب منصب القضاء والفتيا فقد تولى وظيفة التدريس بالمسجد الجامع بقرطبة[٢].

سابعاً: وفاته

وبعد حياة طويلة في طلب العلم ونشره في الآفاق زادت عن السبعين عاماً، تجمع أغلب المصادر على أن مقتل ابن الحاج القرطبي كان بطعنة سكين[٣] بالمسجد الجامع بقرطبة يوم الجمعة وهو ساجد سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م، وسماه تلميذه القاضي عياض في كتابه "الغنية" بالقاضي الشهيد[٤].

(١) ابن الحاج: نوازل، ج١، ص٨٠؛ ج٣، ص٦٣٨؛ القاضي عياض: الغنية، ص٥٤.
(٢) القاضي عياض: الغنية، ص٤٧، ٤٨؛ ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص٢١٧.
(٣) حول حادثة القتل صمتت بعض المصادر عن قاتله حيث تبنى فعل القتل للمجهول، ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص٢١٧؛ وأخرى حاولت كشف هذا الغموض، ابن الحاج: نوازل، ج١، ص٩٠- ٩٤؛ وأخرى اكتفت بأن قاتله قتل في الحين في صحن الجامع، وجهل السبب في ذلك وكثر التخوض فيه، القاضي عياض: الغنية، ص٤٥- ٤٧؛ والراجح لدينا رواية القاضي عياض على الرغم من اهماله لذكر سبب اغتياله، إلا أنه كان أشدّ قرباً منه وأكثر دراية بأخباره، ومهما يكن من أمر فقد كان لهذا الحادث رد فعل قوي سواء في قرطبة أو في غيرها من المدن الأندلس، بسبب اغتيال قاضٍ عدل فقيه خير جامع لأعمال البر قتل مظلومًا ساجدًا يوم الجمعة بالمسجد، ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٩٣.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج١، ص٨٧- ٩٧؛ القاضي عياض: الغنية، ص٤٧؛ ابن خير الإشبيلي: فهرسة، ص٢٤٧؛ ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص٢١٧.

المبحث الثاني

الطبقات الاجتماعية في الأندلس من خلال نوازل ابن الحاج

طبقات المجتمع وطوائفه

اختلفت الفئات المكونة للمجتمع الأندلسي باختلاف أجناسها وميولها ودينها، وبظهور أجيال جديدة بعد الفتح الإسلامي للأندلس بقيت محافظة على أصولها الأولى متشعبة بأفكارها[1]، وبحلول القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كثرت الفتن والاضرابات التي شنها العرب فيما بينهم ثم حروبهم مع البربر، ونشبت ثورات المولودين والصقالبة، واستغل اليهود نفوذهم، كما اتاح الفرصة للمسيحيين المستعربين وشكلوا خطرًا داخليًا على الأندلس منذ سقوط مدينة طليطلة[2] سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م [3]، وعلى الرغم من الفروق

(١) ابن عذاري: أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي(كان حياً سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: كولان وليفي بروفنسال، الطبعة الثالثة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م، ج٢، ص٢٣- ٣٨.

(٢) طُلَيْطُلَة (Toledo): مدينة حصينة عظيمة الأسوار بالأندلس، تقع على شاطئ نهر تاجة، ويتصل عملها بعمل وادي الحجارة، وهي مركز لجميع بلاد الأندلس، وفيها بساتين وأنهار، وكانت دار الملك في الأندلس حين دخلها طارق بن زياد، ثم دار مملكة بني ذي النون من ملوك الطوائف، أخذها النصارى سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، ابن غالب: فرحة الأنفس، ص٢٨٩؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص١٣٠-١٣٣؛ المقري: أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد التلمساني(ت١٠٤١هـ/١٦٣١م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م،ج١، ص١٦١، ١٦٢.

(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٨٣؛ المراكشي: محي الدين عبدالواحد بن علي(ت٦٦٩هـ/١٢٧٠م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م، ص٤٠؛ ابن عذاري: البيان والمغرب، ج٣، ص٩٠؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص١٦١، ١٦٢.

الاجتماعية بين مختلف الأعراق الموجودة في المجتمع الأندلسي، إلا أنه ساهم في النهضة والتطور الحضاري بالأندلس.

أما عن تقسيم المجتمع الأندلسي خلال عصر دول ملوك الطوائف(٤٢٢- ٤٨٤هـ /١٠٣١- ١٠٩١م)، وعصر المرابطين(٤٨٤- ٥٤٠هـ/١٠٩١- ١١٤٥م)، فقد اختلفت الأوضاع بالتفاوت الطبقي، وتشير المصادر خلال هذه الحقبة التاريخية عن وجود فعلي للطبقية آنذاك، وذلك راجع لعدة أسباب منها: المستوى المعيشي لمختلف فئات المجتمع آنذاك، أو الظروف السياسية والاقتصادية للمجتمع الأندلسي، كما أنها خضعت كثيرًا لأهواء الأمراء الذين يرفعون أقوامًا وينزلون آخرين إما بالنكبة أو المصادرة، بجانب ما يترتب على التقلبات السياسية من محن وغيرها، ويظهر أثره في تغيير المستويات الطبقية داخل المجتمع الأندلسي[١]، وقد حدد بعض الباحثين[٢] المعاصرين تصنيف المجتمع الأندلسي عصري ملوك الطوائف والمرابطين إلى طبقات وكان هذا التصنيف يخضع لعدة معايير برزت خلال هذه الحقبة التاريخية أبرزها: ملكية وحيازة الأراضي والاقطاعات من ذوي النفوذ السياسي، بالإضافة إلى ملكية رأس المال: وهو وسيلة في بلوغ السلطة ومستوى الصدارة بالمجتمع، بجانب ذلك أيضًا المستوى الاجتماعي المتمثل في طبيعة وأهمية

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٩٦- ١٩٨؛ ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص٣٠٣؛ ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: بشار عواد معروف، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١١م، ج١، ص١٤٧؛ ٥٠٧؛ ج٢، ص٢٣٣، ٢٣٤.

(٢) إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٧م، ص١٢٠، ١٢١.

الوظيفة أو الدخل، والتي من خلالها يمكن تصنيف الأفراد بالارتقاء ضمن طبقات المجتمع[١].

ومن خلال ما سبق فقد رصد لنا ابن الحاج من خلال النوازل طبقات المجتمع الأندلسي خلال عصري ملوك الطوائف والمرابطين؛ وقد قسم أهل الأندلس إلى ثلاث طبقات هم: الأغنياء، ومتوسطو الحال، والمقلون[٢]، أما عن تدرج تلك الطبقات نذكر منها الآتي:

(١) الطبقة الخاصة

تشكل الطبقة الخاصة (الأرستقراطية) المالكة للبلاد من الحكام والأمراء والوزراء والولاة وقادة الجند والأعيان والفقهاء والكتاب والشعراء، فضلاً عن البيوتات الكبرى(العائلات الوجيهة) المرتبطة بالسلطة والحاشية[٣]، والناظر إلى هذه الفئات يجدها عبارة عن شرائح اجتماعية متنوعة ملكت ثروات طائلة في البلاد، وتولى أفرادها الخطط الرسمية واستثمروا أموالهم في الصناعة والتجارة، جعلت منهم طبقة تتمتع بأكبر قدر من خيرات البلاد، وقد تنافس أمراء الطوائف في كسب تأييد قلة من الفقهاء لهم فقربوا بعضهم وتوسعوا لهم في العطاء، وذلك لإضفاء الشرعية على حكمهم، لأنهم كانوا يفتقرون لمبرر شرعي لحكمهم ومشروعيته، وكانوا عضدا لأمراء الطوائف في تبرير طغيانهم وظلمهم وابتزازهم لأموال الرعية، ويضعون فتاويهم الفقهية في خدمة الأمراء[٤].

(١) الونشريسي: المعيار، ج٩، ص٥٣٩؛ بوتشيش: مباحث، ص١٢٠، ١٢١.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٤١٢.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ٢٨١؛ ٣٨٥؛ ج٣، ص ٦٣٨- ٦٤١؛ بوتشيش: مباحث، ص١٣١.
(٤) ابن بسام: أبو الحسن علي الشنتريني(ت٥٤٢هـ/١١٤٧م): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م،، ق٣، مج١، ص١٨٠، ١٨١؛ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م؛ العصر الثاني، ص٤٢٠، ٤٢١.

ومن ناحية أخرى ساهم العديد من الفقهاء بشكل فعال في المجال السياسي في نصح ملوك الطوائف بالوعظ والإرشاد، وقد بذلوا جهودا كبيرة في الدعوة إلى نبذ الخصومات السياسية والتنبيه إلى الخطر الكامن وراء الصراعات الداخلية، والدعوة إلى الوحدة والاستقرار السياسي، وكان لهم تأثير بارز على مجرى الأحداث السياسية من خلال الاستنجاد بالمرابطين لرد الخطر النصراني؛ وإقناعهم بضرورة القضاء على حكم الطوائف بعدما تبين تخاذلهم، وأشار ابن الحاج في نوازله قائلاً:" وبُسِط الحقُ بالعُلَماء"(١).

قام الحكام والأمراء والولاة في عصر ملوك الطوائف بالاستئثار والنفوذ السياسي في المناطق والمدن الأندلسية واستغلالها لمصالحهم الخاصة، ومن المعروف أن ابن الحاج كان شاهدا على أحداث عصره خاصة في عصر ملوك الطوائف، وقد أشار في نوازله إلى كثرة المفاسد من بعض ملوك الطوائف، ووصف حالهم بعد زوال دولتهم قائلاً: " انقراض الدولة السالفة"(٢)، وفي موضع آخر بـــ " دولة الظلم" (٣)، وذلك بسبب كثرة أملاك بعض الحكام والأمراء منهم(٤)، وتمتعهم بمظاهر الترف والبذخ، وسكنوا الدور(٥) والقصور(٦)، ومما لاشك فيه أن وضعية هؤلاء الحكام والأمراء مكنتهم من السيطرة على مقدرات المجتمع إثر تسييرهم لشؤونه المالية، فأصبحوا يتمتعون

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٥٩.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٨٣.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٥٩.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٨٧؛ ابن بسام: الذخيرة، ق١، مج١، ص١١٦.
(٥) ابن الأبار: الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م، ج١، ص٥٤٢.
(٦) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٧٩.

بالثراء وينعمون بالرخاء، فنجد في عصر ملوك الطوائف أن أسرة بني عباد[١] الذين حكموا إشبيلية[٢]، كانوا قبل توليتهم الحكم يمتلكون ثلث كورة إشبيلية، بجانب استحواذ بعض أمراء بني عباد على العديد من الملكيات[٣]، وقد عملت أحيانًا على توسيعها عن طريق المصادرة[٤]، واستغلال النفوذ السياسي الذي ترتب عليه الظلم والتسلط[٥]، ونجد أيضًا في عصر ملوك الطوائف أن بني طاهر[٦] الذين تولوا حكم مدينة

(١) بني عباد: أسرة تنتمي إلى قبيلة لخم اليمنية والتي دخلت مع بلج بن بشر القشيري إلى الأندلس واستقرت في اشبيلية، وقد شهدت مملكة اشبيلية حكم ثلاثة ملوك من بني عباد هم: القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن محمد بن عباد أحد أبرز البيوتات الإشبيلية العريقة وقتذاك، ومؤسس الدولة، منذ الفترة (٤١٤هـ-٤٣٣هـ/١٠٢٣- ١٠٤١م)، ثم خلفه ابنه المعتضد عباد الذي وسع رقعة الدولة وكانت فترة حكمه منذ سنة (٤٣٣- ٤٦١هـ/١٠٤١- ١٠٦٨م) ، ثم خلفه المعتمد محمد بن المعتضد والذي بلغت الدولة في عهده ذروتها قوتها وحضارتها، إلى سقطت على يد المرابطين، وامتدت فترة حكمه من(٤٦١- ٤٨٤هـ/١٠٦٩- ١٠٩١م)، ابن بسام: الذخيرة، ق١، مج١، ص٢٦٨- ٢٧٢؛ ق٢، مج١، ص٤١، ٤٢؛ ص٢٤٧- ٢٤٩؛ المراكشي: المعجب، ص٧٦، ٧٧؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٩١.

(٢) إِشْبِيلِيَة (Sevilla): مدينة في الأندلس وتقع شرق لبلة وغرب قرطبة على نهر الوادي الكبير، وتشتهر بالبساتين وبزراعة القطن وبحفظ الزيتون، ابن غالب: فرحة الأنفس، ص٢٩٢.

(٣) القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ضبطه وصححه: محمد سالم هاشم، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م؛ ج٢، ص٣١١؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص٣٧.

(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٩٦، ١٩٧.

(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٦٤٥، ٦٤٦.

(٦) هو أبي بكر بن طاهر أحد وجهاء مدينة مرسية التي كان يحكمها زهير العامري بجانب حكمه مدينة ألمرية إلا أنه عهد بحكم مرسية إلى أبي بكر بن طاهر، واستمر ابن طاهر بحمكها مستقلاً حتى توفي عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م، وخلفه ابنه أبو عبدالرحمن بن طاهر وظل يحكمها إلى أن سيطر عليها المرابطون سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م، ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص١٢٣، ١٢٤.

مرسية[١] كانوا يملكون نصف المدينة[٢]، وقد كان أبو الحزم جهور[٣] الذي تولى قرطبة أغنى أهلها وأفحشهم ثراء [٤]، وترد نازلة عند ابن الحاج بأن شخصًا من" أهل الثروة والجاه والمال له وكلاء يتصرفون في كراء[٥] رباعه، ولا يتولى هو ذلك بنفسه"[٦]، ونازلة أخرى تصف رجلاً بأنه ذو جاه ومَقدرةُ [٧]، كما أثر انتقال السلطة على مستوى معيشة بعض الأفراد في بعض جهات الأندلس، ومن ظواهر النفوذ

(١) مرسية (Murcia): هي احدى مدن شرق الأندلس وكانت قديماً تمثل قاعدة كورة تُدْمِير، نسبة إلى ملكها تُدْمِير بن عبدوش الذي كان يحكمها في أيام الفتح الإسلامي للأندلس، والتي بنيت بأمر من الأمير عبدالعزيز بن موسى بن نصير سنة ٩٥هـ/٧١٤م، وقد انتقلت عاصمة تدمير إلى مدينة مرسية سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م، والتي بناها الأمير عبدالرحمن بن الحكم الأوسط، وقد سقطت مرسية في أيدي النصارى سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م، ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٣٣؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص١٦٤؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص٦٢، ٦٣.

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص١١٧.

(٣) هو أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيدالله بن أحمد بن محمد، ولي الوزارة أيام بني عامر، وينتسب إلى بيت من أعرق بيوتات الموالي الأندلسية وهو بيت رئاسة ووزارة طوال عهود الدولة الأموية إلى أن سقطت الخلافة الأموية سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣، وقد أجمع أهل قرطبة ووجهاءها على اختيار الوزير أبو الحزم جهور رئيساً لحضرة قرطبة، وكان موصوفاً بالفضل والدهاء وجمع جهور حوله الزعماء والقادة وسلك مسلك الأصالة والحزم والشورى والتضامن، واستمر في الحكم حتى وفاته سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٤م، ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢١٣؛ ٢٣٧؛ ٣٤٠؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص٣٠- ٣٣.

(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص ٦٥؛ ابن بسام: الذخيرة، ق١، مج٢، ص٦٠٢، ٦٠٣.

(٥) الكِراءُ: هو الإجارة والأجرة، وهو ما يعطى مقابل مال، أو عقد معاوضة على تمليك منفعة بعوض بما يدل على تمليك المنفعة من لفظ وغيره، أو تمليك منفعة في مقابل عوض وهو الأجر، ابن منظور: جمال الدين= = أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الإفريقي المصري (ت٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت،١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج٤، ص ١٠؛ ج١٥، ص٢١٩ ؛ ٢٢١.

(٦) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص ١٦٦.

(٧) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص ١١٧.

واستغلال السلطة أيضًا، فقد أشار ابن الحاج في نوازله إلى رجل عُرف بالابتزاز واختلاس الأموال حين كان جابيًا للخراج في عصر ملوك الطوائف، فلما دخل المرابطون الأندلس فَرَّ الرَّجُلُ " فلاذ بأحد من أبناء الدنيا واحتمى به" (١).

وقد حاول المرابطون بعد دخلوهم الأندلس وقضائهم على ملوك الطوائف أن يوفروا الحياة الهادئة للمجتمع الأندلسي ويحاربوا كثيراً من مظاهر التفكك والانحلال الخلقي، وتمثلت السلطة في دولة المرابطين في يوسف بن تاشفين(٢) وبنينه من بعده (٣)، وعُد أقرباء الأمير يوسف بن تاشفين وعشيرته ضمن الطبقة الخاصة، حيث يذكر صاحب الحلل قائلاً: " فوفد عليه منهم جموع كثيرة، ولاهم الأعمال، وصرف أعيانهم في مهمات الاشغال، فاكتسبوا الأموال، وملكوا رقاب

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥.

(٢) هو أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي، ولد في سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، وتولى إمارة دولة المرابطين سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، ولقب بأمير المسلمين بعد أن تنازل له عن الملك ابن عمه الأمير أبي بكر بن عمر بن إبراهيم اللمتوني المتوفى سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م، وأرسى يوسف دعائم دولته، وشمل حكمه المغربين الأقصى والأوسط وجزيرة الأندلس، وتوفي يوسف سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م، مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار، عبدالقادر زمامة، الطبعة الأولى، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٢٤، ٢٥؛ ٢٨؛ ابن أبي زرع: أبو الحسن علي بن محمد الفاسي(كان حياً في ق٨هـ/١٤م)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص١٤٥- ١٥٦.

(٣) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٣٣٩.

الرجال، وكثروا بكل مكان" [١]، ولم يكن المرابطون بمعزل عن الحياة المترفة أيضًا لاسيما في عهد يوسف بن تاشفين وبنيه من بعده[٢].

أما عن الوزارة فهي من الوظائف الإدارية المهمة، وهي " أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية؛ لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة"[٣]، وهناك بعض الوزراء الذين ينتمون إلى ولاة الأمر والطبقة الحاكمة، مما جعلهم ينعمون بالعيش في ظل الهبات والعطايا التي أُغدقت عليهم من قبل الحكام، وقد أشار ابن الحاج إلى الأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين[٤] والي إشبيلية أنه كان من أحد القادة المجاهدين حسب ما ورد في النازلة [٥]، ثم اتخذ بعد ذلك يوسف بن تاشفين سير

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص٣٣.

(٢) ابن الخطيب: لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله(ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م): أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق: أحمد مختار العبادي، محمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء ، ١٩٦٤م، القسم الثالث، ص٢٣٥.

(٣) ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد(ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهرس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ج١، ص٢٩٤.

(٤) هو سير بن أبي بكر بن عمر بن تاشفين اللمتوني، ابن أخ يوسف بن تاشفين، وكان من أشهر قواد المرابطين، وهو الذي قام بالاستيلاء على اشبيلية من بني عباد سنة ٤٨٤ه/١٠٩١م، وفتح بعدها قرمونة ولبلة، وشهد الحصار على حصن لييط ثم أزال دولة بني الأفطس واستولى على بطليوس سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، وظل والياً على اشبيلية مدة سبع وعشرين سنة، وتوفي سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م، مجهول: الحلل الموشية، ص٧٢؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ٥٧.

(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٩٣؛ ج٢، ص٢٩٠.

بن أبي بكر وزيراً له[١]، وكذلك أشار ابن الحاج في نوازله إلى الوزير أبي الأصبغ موسى بن عباس بن جعفر بن أحمد بن عباس[٢].

أما عن الفقهاء؛ فقد حظي الكثير منهم بمركز اجتماعي ومكانة عالية في المجتمع الأندلسي، كونهم حفظة الدين وحملة الشريعة، ويؤكد المقري أن :" سِمَةُ الفقيه عندهم جليلة"[٣]، وتأتي أهمية الفقهاء ودورها في التأثير على مجريات الحياة الاجتماعية وتنظيم أحوال وشؤون الرعية، سواء في مجال الأحكام الفقهية والعبادات أو المعاملات أو العلم أو التدريس بشكل عام، ومن خلال إشرافهم على الخطط الدينية بوجه خاص، وقد أهلتهم مكانتهم المادية ليتصدروا ضمن الطبقة الخاصة في المجتمع الأندلسي [٤]، بفضل تحالفهم مع الحكام، حيث نجد ملوك الطوائف الذين حاولوا إضفاء الشرعية على حكمهم فبذلوا جهدًا في إرضاء علماء الدين وتقريبهم لتحقيق غرضهم[٥]، أما المرابطون فقد كانت دعوتهم قائمة على أساس الدين والعقيدة، وتعلق "يوسف بن تاشفين" بالفقهاء لذلك أجرى عليهم الأرزاق من بيت المال طوال أيامه[٦]، ومن بعده ابنه "علي"[٧] الذي كان لا يصدر أي حكم إلا عن طريق فتوى شرعية من الفقهاء، مما جعل لهم مكانة ونفوذا مكن

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص٢٤.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص ٣٨٥.
(٣) المقري: نفح الطيب، ج١، ص٢٢١.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص ٦٣٨.
(٥) ابن بسام: الذخيرة، ق٣، مج١، ص١٨٠، ١٨١؛ عنان: دولة الإسلام، العصر الثاني، ص٤٢٠، ٤٢١.
(٦) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٣، ص٢٣٤.
(٧) هو أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين، خامس حكام دولة المرابطين في المغرب والأندلس، تولى بعد وفاة أبيه سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م، وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين، وجرى على سنته في إيثار الجهاد وإخافة العدو، وكان حسن السيرة، عادلاً، وتوفي سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م، مجهول: الحلل الموشية، ص٨٤، ٨٥؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص١٥٧، ١٥٨.

البعض منهم في أن صاروا يدخلون المدن دخولاً رسميًا يشبه دخول الأمراء [١] وبدورهم وضعوا أنفسهم في خدمة الطبقة الخاصة وسندوها عند العامة[٢].

ويتصل بطبقة الفقهاء والعلماء فئة القضاة [٣]؛ إذ كانوا يختارون من العلماء ورجال الدين، وكانوا يشكلون طبقة متميزة لاختصاصهم بتنفيذ أحكام الدين على سائر الرعية[٤]، ومما لا شك فيه أن للقضاء مهابة واحترامًا عند الخاصة والعامة، لأهمية خطتهم واطلاعهم الواسع في مجال الشرع وخطورة ما يتعرضون له من قضايا تهم الدماء والأموال والحلال والحرام، ومن هنا اكتسب القضاة نفوذًا وسيادة في المجتمع الأندلسي، وصارت كلمتهم مسموعة لدى ولاة الأمر[٥]، وقد بين لنا ابن الحاج من خلال النوازل إلى أن خطة القضاء انقسمت إلى ثلاثة أنواع حسب الأهمية ومناطق اشتغالهم بها، وهم: قضاة الحواضر والقواعد، وقضاة الكور وحكّامُها، وقضاة أصحاب المَدَرِ[٦].

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٦٤، ١٦٥؛ المراكشي: المعجب، ص١٣٠؛ حسن علي: الحضارة الإسلامية، ص٣٣٦؛ بوتشيش: مباحث، ص١٤٤، ١٤٥.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٥٤.

(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٠٧.

(٤) حسن علي: الحضارة الإسلامية، ص٣٤٢.

(٥) النباهي: أبو الحسن علي بن عبدالله بن محمد المالقي(كان حياً سنة ٧٩٣هـ/١٣٩١م): تاريخ قضاة الأندلس ، المسمى كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق ونشر: لجنة إحياء التراث العربي، الطبعة الخامسة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م،ص٢؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص٢١٧.

(٦) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٧٧.

وتشير نوازل ابن الحاج إلى عدد ممن وقع عليهم اختيار الحكام في عصري الطوائف والمرابطين لتولي منصب القضاء في المدن الأندلسية[١]، ومنها: منصب قاضي الجماعة فهو من أرفع المناصب القضائية في الأندلس وأعظم رتبة ومنزلة من بقية القضاة، وكان صاحبه يشرف على القضاء في جميع أنحاء الأندلس ويتمتع بسلطات واسعة [٢]، ويبدو أن هذا المنصب كان لا يتولاه إلا كل من يثبت كفاءة عالية في أمور القضاء، وقد أشار ابن الحاج في نوازله إلى عدد من قضاة الجماعة في الأندلس ومنهم: القاضي أبو بكر[٣] بن أدهم[٤]، كذلك القاضي أبو عبدالله محمد بن حمدين[٥] قاضي الجماعة بقرطبة[٦]، وكذلك القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد(ت٥٢٠هـ/١١٢٦م)

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٧؛ ٨٤؛ ١٠٧؛ ٢٠٤؛ ٣٣٨.

(٢) الخشني: أبو عبدالله محمد بن الحارس بن أسد(ت٣٦١هـ/٩٧٢م): قضاة قرطبة وعلماء افريقية، تحقيق: السيد عزت العطار الحسيني، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص٢٨؛ ٤٢؛ حسن علي: الحضارة الإسلامية، ١٥٩، ١٦٠.

(٣) هو أبو بكر عبيد بن محمد بن أدهم من أهل قرطبة، وقاضي الجماعة بها، استقضاه المعتمد محمد بن عباد بقرطبة سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م، وكان عالماً من أهل الصرامة في تنفيذ الحق، لا يخاف في الله لومة لائم، وظل في القضاء إلى أن توفي سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م، ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص٣٩٦، ٣٩٧.

(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٤٠٥.

(٥) هو أبو عبدالله محمد بن علي بن محمد بن عبدالعزيز بن حمدين التغلبي، قاضي الجماعة بقرطبة، ولد في سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م، وتولى القضاء في قرطبة سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م، وكان عالماً حسن السيرة وذا مكانة لدى حكام المرابطين ولا يخالفه أحد، وظل يشغل منصب القضاء حتى توفي سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م، ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص٢٠٤.

(٦) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٣؛ ٤٨؛ ٣٢٩؛ ج٣، ص٥١٣.

قاضي الجماعة بقرطبة [١]، أم عن قضاة قرطبة فمنهم القاضي أبو بكر محمد بن منظور[٢] قاضي قرطبة[٣]، والقاضي أبو عبدالله محمد بن أصبغ[٤] [٥]، وغيرهم العديد من القضاة في بلاد الأندلس[٦].

ولم يغفل ابن الحاج في أن يشير في نوازله إلى معاقبة وعزل المخالفين من القضاة، حيث ترد نازلة يشدد فيها على عزل كل قاض تقاعس عن القيام بواجباته أو أخل بها، والسبب في ذلك قصد إراحة دين الإسلام منه، فبقاؤه يحكم في دين - الله تعالى- وإيذاء المسلمين وأموالهم من أعظم الشر والعار في دين - الله تعالى- وشريعة النبي محمد ﷺ ، وقد شدد ابن الحاج بمطالبة أولى الأمر بوجوب عزله، موضحًا ذلك بقوله فلا يحل لمن بيده الأمر ممن استرعاه الله - تعالى- أمر المسلمين أن يتركه طرفة عين [٧].

وتتمثل خطة الشورى في الفقهاء المشاورين أو المفتين وهم جماعة من الأعلام، يختارهم الأمراء لاستشارتهم فيما يعرض عليهم

---

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٧.

(٢) هو القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن عيسى بن محمد بن منظور القيسي من أهل إشبيلية، كان حافظاً للحديث، تولى قضاء قرطبة، وكان حسن السيرة في قضائه عادلاً في أحكامه، وتوفي بإشبيلية سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٧م، ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص١٧٩، ١٨٠.

(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٤٧.

(٤) هو أبو عبدالله محمد بن أصبغ بن محمد بن أصبغ الأزدي، قاضي الجماعة بقرطبة، كان حافظاً من أهل الفضل والدين والعفاف، وحسن الصوت وتولى الصلاة بجامع قرطبة، وتوفي سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م، ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص٢٢٢، ٢٢٣.

(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٨٤.

(٦) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٧؛ ١٠٧؛ ١٩٤؛ ٢٨٨، ٢٨٩.

(٧) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٦٢، ٦٣.

من القضايا، ولكي يستشيرهم القضاة أيضاً في مجلس الشورى القضائي إذا رأوا ذلك، قبل أن يصدر الأحكام، وقد يختارهم القاضي بنفسه بشرط موافقة الأمراء [1]، وقد أورد ابن الحاج في النوازل صفات اختيار الفقيه المشاور قائلاً:" من ينبغي أن يشاور من أهل العلم؟ العالم الناقد الخِّيرُ الورع، الواثق بنفسه وعلمه، والعالم بكتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ، وما مضى من الحكم، العارفُ باللغة ومعاني الكلام، الموثق به في دينه، والذي يُؤمَنُ فيما يُشير به ولا يميل إلى هوى ولا طمع. وإذا كان كذلك ورآه الناس أهلا، ورأى نفسه أهلا لذلك، وجب على القاضي مشاورتُه، وعليه أن يُفتي الناس حينئذٍ"[2].

وكان القاضي يجلس وسط فقيهين مشاورين للفصل في القضايا المعروضة عليه[3]، ويحدد ابن عبدون أن لا يكون الفقهاء المشاورين أكثر من أربعة: اثنين يشتركان في مجلس القاضي، واثنين يجلسان في المسجد الجامع[4]، وقد أشار ابن الحاج في نوازله إلى العديد من الفقهاء المشاورين منهم: الفقيه المشاوَر الإمام أبو الوليد هشام[5] بن أحمد

(١) الخشني: قضاة قرطبة، ص٢٨؛ ٤٢؛ حسين مؤنس: شيوخ العصر في الأندلس، الطبعة الثانية، دار الرشاد، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٣٠، ٣١.

(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٦٧٦، ٦٧٧.

(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٣٧؛ النباهي: المرقبة العليا، ص١٠٢؛ ١١٤؛ ١٤٩.

(٤) ابن عبدون التجيبي: محمد بن أحمد بن عبدون الإشبيلي(ت قبل ق ٦هـ/١٢م): ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال، نصوص وترجمات المجلد الثاني، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص٩.

(٥) هو أبو الوليد هشام بن أحمد بن سعيد المعروف بابن العواد، من أهل قرطبة، كان من جلة الفقهاء وكبار العلماء وخيارهم، حفاظاً للرأي مقدماً على جميع أصحابه بصيراً بالفتيا، عارفاً بعقد الشروط وعللها، دعي إلى القضاء فامتنع، وتوفي ابن العواد سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م، ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص٢٩٩.

المعروف بابن العواد[١]، كذلك الفقيه المشاور أبو محمد عبدالرحمن بن محمد بن عَتّاب بن محسن القرطبي(ت ٥٢٠هـ/١١٢٦م)[٢] وقد اثنى عليه ابن بشكوال قائلاً" شُوور في الأحكام..، وكان صدراً فيمن يُستفتى لسنه وتقدمه وكان من أهل الفضل والوقار والتواضع"[٣]، وكذلك الفقيه المشاور أبو القاسم أصبغ[٤] بن محمد [٥]، وغيرهم الكثير[٦].

أما عن البيوتات الكبرى في الأندلس؛ وهي الأسر التي تميزت بمكانتها الرفيعة وحظيت بالجاه والسلطان خلال عصري الطوائف والمرابطين، بل ازدادت غنى وشكلت بذلك عنصرًا مهمًا في طبقة الخاصة، وكان معظم أفراد تلك الأسر الكبيرة يتمتعون بالوظائف العالية في الدولة، واستطاعوا تكوين ثروات طائلة وممتلكات[٧]، أما عن أشهر هذه الأسر الأندلسية التي أوردها ابن الحاج في نوازله أسرة بني زُهر[٨]، وكانت تلك الأسرة تسكن في مدينة إشبيلية في عهد دولة

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٣؛ ٦٢؛ ٢٣٩.

(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٦٣؛ ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص٤٤٣.

(٣) ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص٤٤٤.

(٤) هو أبو القاسم أصبغ بن محمد بن محمد بن أصبغ الأزدي، كبير المفتين بقرطبة، كان من جلة العلماء وكبار الفقهاء، بصيراً بالفتوى مقدماً في الشورى، عارفاً بالشروط وعللها، لا يجاريه أحد من أصحابه، وتولى الصلاة بجامع قرطبة، وتوفي سنة ٥٠٥هـ/١١١١م، ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص١٦٧، ١٦٨.

(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٦١.

(٦) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٤٧؛ ج٣، ص٦٣٨.

(٧) صلاح خالص: اشبيلية في القرن الخامس الهجري دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في إشبيلية وتطور الحياه الأدبية فيها(٤١٤- ٤٦١)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٥م، ص٤٢- ٤٦؛

Levi- Provencal: Histoire de La Espagne Musulmane, paris, 1967, Tomes ,111,pp. 188 - 192.

(٨) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٩٦- ١٩٨.

بني عباد وهم " أهل بيت كلهم علماء ورؤساء وحكماء، نالوا المراتب العليا، وتقدموا عند الملوك ونفذت أوامرهم"[١]، ويشير لنا ابن الحاج عن ثراء هذه الأسرة، حيث قام بنو عباد ملوك إشبيلية بغصب بعض أملاكهم ومصادرتها[٢]، ويبدو أن إقدام حكام إشبيلية على هذا الأمر جاء بسبب خوفهم من هذه الأسرة الثرية خشية على سلطانهم بإشبيلية، فأبعدوهم عنها، ومصادرة أملاكهم بها[٣]، وعند زوال عصر ملوك الطوائف أعاد الحكام المرابطين أملاك بني زهر المغصوبة منهم وذلك بعد فتوى الفقهاء بوجوب إعادة الملك لهم[٤]، وازداد نفوذ هذه الأسرة في عصر المرابطين[٥]، ومن العائلات الوجيهة أيضًا في الدولة المرابطية أسرة بني حمدين بقرطبة[٦]، ومنهم القاضي أبو عبدالله محمد بن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة[٧].

(١) ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد إبراهيم الإربلي (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ١٩٠٠م، ج٤، ص٤٣٤؛ المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٢٤٧.

(٣) ابن رشد: أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي المالكي (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م): فتاوى ابن رشد، تحقيق: المختار بن الطاهر التليلي، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، السفر الأول، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج١، ص٢٠٢- ٢٠٥؛ ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٩٦- ١٩٨.

(٤) ابن بسام: الذخيرة، ق٢، مج١، ص ٢١٩.

(٥) ابن رشد: فتاوى، ج١، ص٢٠٢- ٢٠٥؛ ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٩٦- ١٩٨.

(٦) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص٦٥؛ المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٢٤٧.

(٧) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص٢٥٥.

(٨) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٣؛ ٤٨؛ ٣٢٩؛ ج٣، ص٥١٣.

(٢) الطبقة الوسطى

تمتعت بلاد الأندلس في ظل الملوك والأمراء بتطور في مجالات الحياة الاقتصادية، وذلك لتحقيق مستوى معيشي يليق بمظاهر الملك، وضمت هذه الطبقة عدة شرائح اجتماعية متنوعة[١].

ورصد لنا ابن الحاج في نوازله هذه الشرائح الاجتماعية وأطلق عليهم أصحاب المهن العليا، والتي يصفها بـ "الصنائع العَلِيَّةِ" [٢]، و" الجليلة"[٣]، ومن فئات هذه الطبقة؛ أرباب الحرب[٤]، كالأمير القائد سير بن أبي بكر بن تاشفين والي إشبيلية، وكان أبي بكر من المجاهدين حسب ما ورد في النازلة[٥]، وكذلك فئة التجار[٦]، والصيارفة الذين يتكسبوا من أعمال الصيرفة[٧]، وأصحاب المهن الحرة كالأطباء وغيرهم من أهل العلم[٨]، فضلاً عن أصحاب الوظائف المتوسطة والمشتغلون في خطط الدولة الأقل أهمية من الوزراء والقضاة، ويبدو ارتباط أصحاب الخطط بالسلطة أعطاهم مكانة داخل المجتمع، ورصد ابن الحاج في نوازله هذه الفئة، كصحاب الأحكام[٩]، وصاحب

(١) بوتشيش: مباحث، ص١٦٠.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٦٨٤.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٦٨٥.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٤٢٥.
(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٩٣؛ ج٢، ص٢٩٠.
(٦) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٣١.
(٧) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص٨٥؛ ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٢٧.
(٨) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٥٣؛ ج٣، ص٥٨٢؛ ٦٨٢؛ ٦٨٥.
(٩) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٦٣.

المدينة[١]، وصاحب الشرطة [٢]، وصاحب المواريث[٣]، وصاحب الأحباس، والمحتسب[٤]، الذي يراقب الأسواق ومعاقبة المتلاعبين بالأسعار، ويشترط على من يتولى خطة الحسبة أن يكون فقيهًا عارفًا بأحكام الشريعة، ويتصف بالرفق واللين، ويتم تعيين هؤلاء من قبل الفقهاء والقضاة [٥]، ومن الواضح أن تصنيف هذه الطبقة يرتكز على مستوى معيشتهم ومكانتهم من الطبقة الخاصة الحاكمة والمصالح التي تربطهم بها.

(٣) الطبقة العامة

اشتملت طبقة العامة على عدة فئات وطوائف داخل المجتمع الأندلسي خلال عصري الطوائف والمرابطين، فظهر من خلال النوازل مستوى معيشتها المنخفض وتأثرها بالأزمات السياسية والاقتصادية في بعض الأحيان، لا سيما خلال هذه الحقبة التاريخية، والتي شهدت خلالها الأندلس أزمات اقتصادية كما شهدت النكبة والمصادرة من قبل الحكام، إلى أن وصل بهم الحال أن لبسوا الحصر والجلود وأكلوا الحشائش والبقل[٦]، واضطروا على إثر المجاعات "أن دفن كل ثلاثة أو أربعة أشخاص في قبر واحد وأن المساجد خلت من المصلين[٧].

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٥٠.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٧٩.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٦٩.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٢٦؛ ج٣، ص ٦٤٠.
(٥) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص٢٠.
(٦) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٦٢.
(٧) صلاح خالص: اشبيلية في القرن الخامس الهجري ، ص٥٤.

ولم يغفل ابن الحاج في أن يذكر في النوازل بعض هذه الفئات والطوائف المهمشة، وأطلق عليهم أصحاب المهن الوضيعة[١]، والصنائع الدَّنِيَّةَ [٢]، وبوجود هذه الفئات والطوائف نستدل على مدى إسهاماتهم ودورهم الهام في الحياة اليومية، ومدى احتياج البلاد لهم، والتي كانت مرتبطة بالتشريعات والأعراف المنظمة داخل بلاد الأندلس، من خلال نشاطهم في الأسواق والطرقات أو الميادين[٣].

ومن ضمن هذه الفئات المهمة التي ذكرها ابن الحاج في نوازله نذكر منهم : الوكلاء[٤]، والعَشَّارُ[٥] [٦]، بالإضافة إلى الصناع الذين انتشروا في البلاد، كالحداد[٧]، والنخاس[٨]، والصائغ[٩]، والسراج[١٠]، والبناء [١١]، وقد اشتغل في البناء العديد من الصناع، نظراً لأن حركة التشييد والعمران التي شهدتها البلاد قد نشطت في عصري ملوك الطوائف والمرابطين على يد الحكام، مما استلزم معه جماعات متنوعة تقوم بعمليات البناء، في المساجد بقرطبة وإشبيلية[١٢]، أو في

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٠٩.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٦٨٤.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٤٥؛ ٢٢٨؛ ج٣، ص٥٨٢؛ ٦٨٥، ٦٨٦.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٦٠؛ ١٦٦؛ ج٣، ص٥٨١.
(٥) العَشَّار: هو الذي يأخذ العُشْر عن السلع في الأسواق، ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص٥٧٠.
(٦) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٢٣.
(٧) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٢٩؛ ج٣، ص٤٥٤.
(٨) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٠١؛ ٥٨٢.
(٩) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٨٧.
(١٠) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٢٧.
(١١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٣٩؛ ج٣، ص٦٨٥.
(١٢) ابن عبدون: رسالة في الحسبة،ص٣٤، ٣٥؛ ابن الحاج: نوازل،ج٢، ص٢٢٧-٢٢٩؛ ج٣، ص٦٣٨-٦٤٠.

بناء المدن والقلاع والحصون[١]، بالإضافة إلى بناء الفنادق[٢]، والحمامات[٣].

أما عن مهن وممارسات صغار التجار والباعة المتجولين (تجار التجزئة) نذكر منهم: الدلال(السمسار)[٤]، وهو الوسيط بين البائع والمشترى، وكان السماسرة ينادون على السلع في الأسواق ويزايدون فيها[٥]، بالإضافة إلى ذلك الباعة المتجولين في الطرقات والأجراء[٦]، وبجانب ذلك الباعة الذين يبيعون الطعام في متاجرهم لأهل المدن والقرى كالجزارين[٧]، وبائع السمك[٨]، وكذلك من الصناع الفران (الخباز)، والحائك (النساج)، والكناس، والزراع (الفلاحين) وغيرهم من العوام[٩].

ومن ضمن هذه الفئات المهمة أيضًا في هذه الطبقة؛ فئة العبيد(الرقيق)[١٠]، وكانت أسواق النخاسة وتجارة الرقيق رائجة في

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٧٩، ٨٠؛ ج٣، ص ٥٧٣؛ ٦٣٨؛ ٦٤٢، ٦٤٣.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٥٩.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص ٢٢٨؛ ج٣، ص٥٠٢؛ ٥٤٢.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٣٩؛ ج٣، ص٥١٤؛ ٥٨١؛ ٥٨٦.
(٥) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص٤١، ٤٢؛ ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٠١؛ ٥١٤.
(٦) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص٥٣؛ ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٨٢.
(٧) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص٥٥؛ ٥٧؛ ٩٢، ٩٣؛ ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٤٨.
(٨) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٤١، ١٤٢.
(٩) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص٤٨؛ ٩١؛ ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١١٠؛ ج٣، ص٦٨٥، ٦٨٦.
(١٠) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص ٢٦٢.

الغرب الإسلامي[١]، وقد حظي الأسرى من النصارى بالاهتمام والأمان من قبل المسلمين عصري الطوائف والمرابطين[٢]، وشجع الرخاء الاقتصادي في عصري ملوك الطوائف والمرابطين الحكام والرعية على حد سواء، على جلب الرقيق إلى الأندلس، لاستخدامهم في مجالات متعدد من الخدمة، وكثر استعمالهم في القصور والدور تلبية لأغراض الحكام والأمراء وذوي السلطات من الطبقة الحاكمة، وكان لها دور هام في المجتمع الأندلسي ومن خلال مهامهم كشفت عن طبيعة احتواء المجتمع لهذه الفئة [٣]، وقد أشار ابن الحاج في نوازله إلى أن رجل غاب عن ثلاث جاريات مملوكة له مدة ست سنوات، وقد رفع أحوالهم للقاضي[٤].

(٤) طوائف أخرى (أهل الذمة)

شكل أهل الذمة طبقة مهمة في المجتمع الأندلسي، بجانب التسامح والتعايش السلمي من قبل جميع عناصر المجتمع[٥]، إلا أنهم قد استغلوا ضعف ملوك وأمراء الطوائف ليستولي بعض الأعيان منهم على بعض المناصب لدى ملوك الطوائف، وتمتعوا بمكانة اجتماعية مرموقة[٦]، وقد رصد لنا ابن الحاج في النوازل أن أحد اليهود في

(١) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص٤٩، ٥٠.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٣٧- ٣٤٠؛ ج٣، ص٤٢٨، ٤٢٩.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٩٢؛ ١١٦، ١١٧؛ ١٥٦.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص ٣٩٠، ٣٩١.
(٥) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص٧٧.
(٦) بوتشيش: مباحث، ص٧٠.

عصر ملوك الطوائف كسب ثروات طائلة بطرق غير شرعية واحتفظ بها [1].

أما عن التسامح الديني بين المسلمين وأهل الذمة؛ فقد تمتع أهل الذمة بالكثير من الحقوق في ظل الحكم الإسلامي في الأندلس، وساد التسامح الديني والمودة من جانب جيرانهم المسلمين، مما كان له الأثر البالغ في حياتهم داخل المجتمع الأندلسي[2]، وقد تمتع أهل الذمة بالحرية في ظل اهتمام ورعاية الدولة خاصة أمراء المرابطين وفقهائهم بالسماح لهم بإقامة شعائرهم الدينية وبناء كنائسهم في بلاد المسلمين، وأن يسيروا أمورهم على وفق أعرافهم وقوانينهم، وقد أشار ابن الحاج في النوازل إلى رسالة أرسلها أمير المسلمين إلى فقهاء الأندلس يستفتي فيها حول مشروعية بناء الكنائس للنصارى المعاهدين(المستعربين) الذين انتقلوا من الأندلس ووصلوا إلى العدوة (المغرب)، بجانب إقامة شعائرهم، فكان رد ابن الحاج أن أباح له بذلك، مع منعهم من ضرب النواقيس فيها[3]، ويبدو أن تغريب النصارى المعاهدين الذين نقلوا من مدن جنوب الأندلس إلى المغرب الأقصى في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، كان بسبب غدرهم بالمسلمين

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٥٩.

(٢) ابن سهل: أبو الأصبغ عيسى بن سهل بن عبدالله الأسدي الجياني (ت٤٨٦هـ /١٠٩٣م): الإعلام بنوازل الأحكام، المعروف بالأحكام الكبرى، تحقيق: نورة محمد عبدالعزيز التويجري، الطبعة الأولى، دون دار نشر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م،ج٢، ص٧٧٣، ٧٧٤؛ ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٤٥؛ ج٣، ص٥٧٧، ٥٧٨.

(٣) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص٥٥؛ ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٦٤، ١٦٥؛ ٣٠٥؛ الونشريسي: المعيار، ج٨، ص٥٦، ٥٧.

وتحالفهم مع الفونسو[١] المحارب ملك أرغون أثناء غزوته المدمرة لجنوب الأندلس سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م[٢].

كما أشارت النوازل إلى بعض المشاكل التي تؤدي بها الجزية والتي فرضت على أهل الذمة، وقد سأل ابن الحاج في مسألة؛ حالة ما إذا تولى أحد الولاة الحكم، وأراد أن يفرض زيادة على أهل الذمة، فأفتى ابن الحاج بأن قدر الجزية يبقى على ما هو عليه، ويدفعوها على القدر المفروض عليهم حسب أحوالهم التي كانت تؤخذ منهم [٣]، وقد كشفت نوازل ابن الحاج عن أخبار اليهود ودورهم في الحياة الأندلسية وإسهاماتهم في الأحداث والوضعية القانونية والاجتماعية[٤]، حيث أشار في نوازله إلى أحكاماً تقضي بأن يدفع يهود العدوتين ضريبة العشر إذا انتقلوا بتجارتهم إلى العدوة الأخرى، في حين يسقط عنهم ذلك متى اكتفوا بالتجارة في موطنهم الأصلي[٥].

وقد ترك التشريع الإسلامي في سماحته لأهل الذمة في الأندلس تدبير أمورهم بأنفسهم، فجُعل كل ما يشكل من قضايا أو منازعات

---

(١) هو ألفونسو الأول الملقب بالمحارب ملك مملكة أراغون، وهو الابن الثاني للمك سانشو راميراث، خلف ألفونسو شقيقه بيدرو الأول ملك أراغون في الحكم، وكانت أبرز نجاحاته العسكرية سيطرته على سرقسطة سنة ٥١٢هـ/١١١٨م.
Antonio Preito R Vives : Los Reyes de Taifas, Madrid, 1926, P.49.

(٢) كمال السيد أبو مصطفى: جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، ١٩٩٦م، ص٣٩، ٤٠.

(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٤٢٠، ٤٢١.

(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٩٧؛ ج٣، ص٥٨٢.

(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص ٣٣٧ - ٣٤٠.

بينهم موكلة إلى رجال من دينهم(١)، وجرت العادة عند تظالم اليهود فيما بينهم في الأموال والحقوق أو ما شابه ذلك، ودعا أحد الخصمين إلى اللجوء إلى القاضي المسلم، ودعا الثاني إلى قضاتهم من اليهود، كان يتم التقاضي لدى القاضي المسلم، ويحكم بينهما بحكم الإسلام، خصوصاً عندما يكون لدى أحدهما وثائق وسجلات عربية وشهود من المسلمين(٢)، وقد افتى الفقهاء بأن يخير القضاة المسلمين في الحكم بينهم أو يصرفهم إلى قضاتهم(٣)، لقوله تعالى ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾(٤)، أما إذا اختلف أحد من أهل الذمة مع أحد المسلمين، كان يتم التقاضي لدى قضاة المسلمين ويتولون الفصل بينهما(٥)، وكان حلف اليمين عند أهل الذمة في دور عبادتهم، فكان اليهودي يحلف إذا وجبت عليه يمين يوم السبت، أما النصراني فيحلف يوم الأحد(٦)، ومن الواضح في ذلك أن أهل الذمة تمتعوا بالأمن

(١) محمد عبدالوهاب خلاف: تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص١٩٠.

(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٨٧- ١٩٢؛ ج٣، ص٦٣٢، ٦٣٣؛ الونشريسي: المعيار، ج١٠، ص٥٦.

(٣) الونشريسي: المعيار، ج١٠، ص١٢٨، ١٢٩.

(٤) سورة: المائدة، الآية رقم (٤٢).

(٥) ابن سهل: الأحكام الكبرى، ج١، ص ٥٦٠؛ ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص ٣٢٩، ٣٣٠.

(٦) ابن سهل: الأحكام الكبرى، ج١، ص ٥٦١؛ الونشريسي: المعيار، ج١٠، ص٣٠٩.

والاستقرار وعاشوا في البلاد كغيرهم من طبقات المجتمع الأندلسي وتمتعوا بعدالة ولاة الأمر.

المبحث الثالث

المظاهر الاجتماعية في الأندلس من خلال نوازل ابن الحاج

أولاً: الأسرة الأندلسية وأهم المشكلات

كشفت نوازل ابن الحاج كثيراً من القضايا والمشاكل الواقعية في الأندلس، وبين آراء الفقهاء فيها الذين عاصروا تلك الفترة قائلاً: " فجاء الكلام في هذا بيني وبين ابن رشد"(١)، ويذكر أيضاً " فأنا أذكر أن هذه المسألة جرت بيني وبين بعض أصحابي" (٢)، بجانب اعتماده على المذهب المالكي وغيره من آراء الفقهاء الذين سبقوه، وأراء الأئمة من تلاميذ الإمام مالك وغيره(٣)، أما عن هذه القضايا فهي قضايا يطلق عليها الأحوال الشخصية وما تطرحه من مشاكل الزواج والطلاق والنسب والخصومات وغيرها، إضافة إلى بعض الفتاوى التي تمس السياسية والاقتصاد والجهاد وما له علاقة بخصوصيات المجتمع الأندلسي في علاقاته بالنصارى، ومن هذه القضايا التي أوردها ابن الحاج في النوازل نذكر منها الآتي:

(١) الزواج

إن الزواج شرعية إلهية وسنة كونية، لضمان استمرار الحياة وعمارة الكون، وكشفت نوازل النكاح على العديد من الحقائق والإشارات المتعلقة بالزواج والحياة الأسرية في المجتمع الأندلسي

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٤٥.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٤٧.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٤٩٨؛ ٦٢٥.

خلال عصري ملوك الطوائف والمرابطين، حيث تبدأ إجراءات الزواج في المجتمع الأندلسي طبقًا للشريعة الإسلامية بالخِطبة، وقد عرف الأندلسيون الخاطبة والتي كانت تقوم بدور هام في اتمام الخطوبة(١)، وقد اشترط ابن الحاج بقبول الزواج أن تسأل وتسمع موافقة المرأة علانية بالنطق، سواء كانت بكراً أو ثيبًا، حرة أو جارية، ويكتفى باستئذانها، فإن صمتت أو ضحكت زُوجت، وإن أنكرت القول أو البكاء، أو ما يظهر عليها ما دل على الرفض لم تزوج (٢).

وقد وضع الفقهاء شروطاً عدة لإتمام عقد النكاح، ولا يتم عقد النكاح إلا بولي وصداق وشهود(٣)، وكان الزواج يوثق بعقد يتضمن تاريخ الصداق وشروط الزواج(٤)، ويشترط في كاتب العقد رجل فقيه ورع غنيّ، ولا يكون شابًا(٥)، وكان الصداق في الأندلس إما عينًا أو نقدًا وعينا، سواء مال أو عقار أو ماشية وغيرها، غير أن حالة الراغب في الزواج تختلف باختلاف قدرته المالية، فعادة يعجز عن دفع الصداق المشترط كاملا فيلجأ إلى تقسيمها إما أن يدفعه قبل الدخول بالزوجة أو بعده(٦).

وكان جهاز العروس ومكوناته من الأمور المهمة التي تناقش بين الأسرتين، وغالبًا ما يكون مدعاة للتباهي والتفاخر أمام الناس، وعن ثقل نفقات العرس يشير الزجالي قائلاً:" ما أطيب العرس لولا

(١) الونشريسي: المعيار، ج٣، ص١٢١.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٥٣- ٥٧.
(٣) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص٨٠.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٤٥؛ ٣٧٤.
(٥) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص١٣.
(٦) ابن رشد: فتاوى، ج١، ص٨٣٨؛ ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٥٧؛ الونشريسي: المعيار، ج٣، ص١٤٧؛ ٢٦٣، ٢٦٤.

النفاقة" [1]، وقد اشتهرت مدينة مرسية بأنها البلد الذي تجهز فيها العروس، ومنها إلى مختلف بلاد الأندلس[2]، وقد اضطر الآباء في كثير من الأحيان تحمل نفقات الزواج عن عاتق أولادهم وبناتهم من أموال ومتاع، تيسيراً على عاتق الشخص المُقدم على زواج ابنته، فقد كان الأب ينفق في تجهيز العروس، فيما يعرف بالجهاز، فيشتري ولي المرأة ما تحتاجه العروس في بيت الزوجية، من ملابس وأثاث وجواهر وحلي وغيره[3]، وقد انتقد الفقهاء تكلفة الزواج وما يصاحبها من غلاء ونفقات باهظة.

وقد تمتعت المرأة بمكانة مرموقة في المجتمع الأندلسي[4]، وكشف لنا ابن الحاج في النوازل أن عقود الزواج مشروطة بشروط خاصة للرجال وشروطاً أخرى للنساء أثناء عقود صداقهن، وكانت شروط المرأة الأندلسية أكثر من شروط الرجل، ففي نازلة رجل اشترط على نفسه في عقد الزواج ألا يتغيب عن زوجته غيبةً متصلة أكثر من ستة أشهر، إلا في أداء فريضة الحج عن نفسه [5]، وهناك اشارة تبين أن أحداهن ألزمت زوجها في عقد الزواج بألا يعود لزوجته

(١) الزجالي: أبو يحيى عبيد الله بن أحمد القرطبي(ت ٦٩٤هـ/١٢٩٥م): أمثال العوام في الأندلس، مستخرجة من كتابه "ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام"، تحقيق وشرح ومقارنة: محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشئون الثقافية والتعليم الأصلي، فاس، المملكة المغربية، دون تاريخ، ج١، ص٢٤٢.

(٢) المقري: نفح الطيب، ج٣، ص٢٢١.

(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٧٤- ٣٧٦؛ ٣٦٣.

(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥١٥.

(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٦٣٦.

الأولى المطلقة أبداً طيلة حياته[١]، واشترط زوج على نفسه في عقد الزواج أن زوجته طالق إن تزوج عليها بغير إذنها بزوجة ثانية[٢]، ومن الواضح أن المرأة كانت تتمتع بقسط وافر من الحرية ونفوذها على الرجل، ويبدو ذلك طلباً للراحة الزوجية وضمانًا لحقوقها من الضياع وصونها من متقلبات الدهر، ولخوف المرأة الشديد من تلاعب الزوج بها، حيث أن الطلاق حق مطلق في يد الرجل فأرادت المرأة أن تحمي نفسها إذا أخل بها الزوج يحدث الطلاق.

ومن الظواهر التي حرص عليها الآباء في المجتمع الأندلسي تزويج أبنائهم في سن مبكرة وقبل البلوغ [٣]، وهناك من الشواهد التي تدل على أن المرأة أجبرت على الزواج لأسباب مختلفة، وغالبًا ما يترتب علي هذا الزواج حدوث بعض المشاكل ومنافرتها له بعد الزواج، وقد أشار ابن الحاج في نازلة أن رجل زوج ابنة أخيه اليتيمة، فلما أراد الزوج الدخول بها أبت، وذكرت أنها إن أرغمت على ذلك الزواج قتلت نفسها، وقالت أنها لم ترض بشيء مما عَقد عليها عمها مع ذلك الزوج[٤]، وترد نازلة أخرى بأن رجل زوج أخته فادعت عمتها أنها لم تبلغ، فأفتى ابن الحاج بتكليف اثنين من النساء ليكتشفن أثر البلوغ عليها[٥].

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٤٥.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٠.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢١؛ ٣٦٣، ٣٦٤؛ ج٣، ص٥٦٩.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢١؛ ج٣، ص٤٥٦، ٤٥٧؛ ٦٤٦، ٦٤٧؛ ٦٧٧.
(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٩٥.

كما شاع في الأندلس ما يعرف بالوصاية في النكاح، إذ يلجأ إلى هذا النوع من العقود من يخاف على نفسه الهلاك من مرض أو غياب طويل، وترك خلفه أبناء وبناتا صغارا، فكان الوصي يقوم مقام الولي في تزويج الصغير من الأبناء، وليس له الحق في ذلك تزويج الصغيرة من البنات إلا بعد بلوغها، وقد ذكر ابن العطار أنه لا يجوز نكاح البنت اليتيمة قبل بلوغها، إلا أن يكون الأب جعل للوصي إنكاح بناته الصغار قبل البلوغ وبعده(١)، ومن الظواهر الأخرى في المجتمع الأندلسي عقود النكاح الباطلة، وقد ذكر الفقهاء لا تنكح المرأة إلا بأذن وليها ولا يجوز النكاح بغير ولي(٢)، وقد أشار ابن الحاج في نازلة أن" رجلاً تزوج امرأة وعقد نكاحها وَليُّ ثم ظهر أنَّه ليس بوَليٍّ لها فسُجنت المرأة والزوج وهرب الوليِّ، ثم أُحضر الزوج والزوجة فأنكر الزوج أنه ما علم أنه ليس بوَليٍّ"(٣).

أما عن العلاقات بين الزوجين، فنجد أن المرأة الأندلسية التزمت بمبادئ الإسلام وبثت روح الود والحب ومعاونة الزوج والوقوف بجواره في الشدائد(٤)، وكشف لنا ابن الحاج في النوازل عن العلاقات

(١) ابن العطار: محمد بن أحمد الأموي(ت ٣٩٩هـ/١٠٠٨م): كتاب الوثائق والسجلات، اعتنى بتحقيقه ونشره: شالميتا، كورينطي، مطابع رايكار للطباعة العربية، مجمع الموثقين المجريطي المعهد الأسباني للثقافة، مدريد، ١٩٨٣م، ص٢٦١؛ ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٤٤١.

(٢) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص٧٩؛ ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٤٤٦.

(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٤٧٤.

(٤) ابن حيان: أبو مروان حيان بن خلف بن حسين(ت٤٦٩هـ/١٠٧٦م): المقتبس: حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت،١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص٣١٧؛ ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٤٩.

بين الزوجين داخل الأسرة، ومنها مظاهر حسن المعاملة والود، حيث وهبت امرأة أموالها لزوجها [١]، ومنهن من أباحت لزوجها السكن في منزلها الذي تملكه والخاص بها[٢].

أما عن الجواري في الأندلس فقد كثر وجودهن في المجتمع الأندلسي، نتيجة لكثرة الحروب التي خاضها المسلمون ضد الممالك المسيحية، وهم على صنفين: صنف يُتخذ للأعمال للخدمية في البيوت، وعادة تكون الجارية سوداء، ففي نازلة وصفها ابن الحاج بـــ " المملوكة السوداء"[٣]، أو" الخادمة السوداء" [٤]، والصنف الآخر اتخذ لخدمة السيد والاهتمام به، وقد اشتهرت مدينة قرطبة بسوق تعرض فيه الجواري[٥]، والأطفال وورد وصفهم في النوازل بـ" صبياً أسمر"[٦].

وقد انتشر شيوع ظاهرة التسري بالإماء، والمصاهرات بين المسلمين والنصارى، فقد اتخذ المرابطون زوجات لهم من السبايا والأسرى التي كانت ضمن غنائم الجيش المنتصر، حيث كان الزواج من الإسبانيات تقليدًا شائعًا عند أهل الأندلس، وذلك دليل على سياسة التسامح الديني بين المسلمين وأهل الذمة[٧]، وكان بعض رجال الأندلس يفضل اتخاذ الجواري على الزواج، نظراً لوفرة الإماء

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٦٨٨.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٤٤؛ ج٣، ص٦٤٧.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٨٦.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٢٩.
(٥) ابن بسام: الذخيرة، ق٢، مج١، ص٣٥.
(٦) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٠٧.
(٧) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١١١.

والجواري وراجع ذلك للمغالاة في المهور وكثرة تكاليف الزواج، وأحيانًا اتخاذ الجواري زوجة ثانية إلى جانب الزوجة[١].

(٣) الطلاق

كان الطلاق ظاهرة طبيعية في المجتمع الأندلسي، وكان للظروف الاجتماعية والاقتصادية أثر على الأسرة الأندلسية رغم تعهد الأزواج في عقود الأنكحة بالرفق بالزوجة وعدم الاضرار بها، غير أن نوازل ابن الحاج أشارت إلى كثرة الشكاوى الواردة إليه من مشكلات بين الزوجين[٢]، بالإضافة إلى أن الفقهاء والقضاة قد لجأوا لطرق عديدة في حل النزاع بين الزوجين، فإن لم يتمكنوا بعد فشل مساعي الإصلاح، يدون تلك المساعي في محاضر تسبق وثيقة الطلاق، وإقرار الطلاق وإعلانه للزوجة[٣]، ويبدو ذلك كان راجعًا إلى أن حالات كثيرة في معظم عقود الزواج التي كانت مشروطة بشروط خاصة على الزوج، ومخالفتها من قبل الزوج يحق للزوجة طلب الطلاق أو الخلع، بجانب أسباب أخرى تلحق الضرر بالزوجة.

وكشف لنا ابن الحاج في نوازله قضايا مختلفة للمشكلات الأسرية والاجتماعية والتي كانت تحفل بها مجالس القضاء في عصري الطوائف والمرابطين، مما أدى إلى كثرة الطلاق [٤]، أو

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٠٦؛ ٢٠٢.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٤٤٢، ٤٤٣.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٤٤٦.
(٤) ابن سهل: الأحكام الكبرى، ج١، ص٢٨٧، ٢٨٨؛ ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٥٩؛ ٣٦٣؛ ٤٠٩.

الخلع[١]، فقد عانت العديد من النساء من الضرر الذي يلحق بها لأسباب وظواهر عديدة؛ وقد تناول ابن الحاج في نوازله قضايا وخلافات زوجية نتج عنها حدوث الطلاق، منها بسبب عصيان الزوجة لأوامر زوجها والتجني عليه، وإن كانت هذه الظاهرة متفشية أكثر في أوساط العائلات ذوي الجاه(الارستقراطية)[٢]، كذلك تدخل الأهل بين الزوجين وتحريض الزوجة على زوجها يؤدي أحيانًا إلى التفريق بينهما[٣]، كما كان لغياب الزوج عن زوجته لمدة طويلة أسهم في تفاقم المشاكل والحياة الزوجية، وأدى أحيانًا إلى أن الزوجة لها الحق في تطليق نفسها إذا غاب عنها زوجها عن المدة المحددة في عقد الصداق[٤]، وتعدد أسباب غياب الزوج لفترة طويلة إما بسبب السفر أو الجهاد ضد النصارى أو فقدان الزوج أثناء الحروب والفتن الداخلية[٥].

كما طالبت بعض النساء الطلاق بسبب طول مدة بقاء زوجها بالسجن[٦]، ومن الواضح أن غيبة الزوج من المشاكل التي تعاني فيها المرأة، لكن الإشكال هنا يكمن في سبب الغيبة هل هو عن طوع أو عن كراهية بالنسبة للزوج، فإن كان على طوع فأمر الزوجة بيدها إذا زاد عن الستة أشهر إلا في فريضة الحج، ويبقى الإشكال في غياب الكراهية.

---

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ٣٦٤؛ ج٣، ص٤٦٩، ٤٧٠.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٥٥، ١٥٦.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٤٩؛ ١٥١.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٩٤، ٩٥.
(٥) الونشريسي: المعيار المعرب، ج٣، ص٣٣٨؛ ج٤، ص٤٨٣.
(٦) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٣٨.

ورصدت لنا نوازل ابن الحاج مشكلة حضانة الأطفال، ومدى أحقية كل من الزوجين في تلك الحضانة [١]، وكذلك اختلاف الزوجين في رؤية الأبناء، حيث أن بعض النساء منعن من رؤية أولادهن، وقد أشار ابن الحاج في نازلة إلى أن امرأة يحظر عليها زوجها الثاني الخروج من البيت لزيارة أبناء لها من زوجها الأول، وقد أفتى ابن الحاج بأنهم يحملون إليها والكراء في ذلك عليها [٢]، وكذلك مسألة منع الزوج زوجته من زيارة أبيها، والتصرف في ممتلكاتها والاستحواذ عليها[٣]، وأحيانًا بيع ممتلكاتها من متاع وعقار بدون علمها[٤].

ولم يغفل ابن الحاج في أن يشير في نوازله إلى الآثار النفسية المترتبة عن الخلافات الزوجية والتي تؤدي أحيانًا إلى أن يُقسم الزوج بقتل زوجته إن هي أنجبت له بنتا، فقامت زوجته بإلقاء ابنتها التي ولدتها أمام باب البيت مخافة أن يقتلها زوجها [٥]، وكذلك كانت الخلافات الزوجية قد تؤدي أحيانًا إلى ممارسة العنف كالاعتداء والاضرار بالمرأة، كأن يضرب الرجل زوجته ظلماً وعدواناً، مما أثر على معاناة البعض منهم لدرجة تفضي إلى الموت أحيانًا[٦]، وترد نازلة أخرى في جراح إحدى النساء في مواضع مختلفة من جسدها، وذكرت المرأة أن المعتدي عليها زوجها، وأنها إن ماتت يقتص منه،

(١) ابن سهل: الأحكام الكبرى، ج١، ص٢٦٥؛ ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٤٧٠، ٤٧١.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٤٨.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١١٧.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٠٣.
(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٧٦.
(٦) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٦٩.

فماتت الزوجة نتيجة الجراح، وفر زوجها إلى حيث لا يعلم له مستقر[١]، وقد عانت المرأة أيضاً من سوء المعاملة والبغض من طرف أزواجهن[٢]، بجانب رفضهم النفقة علي أزواجهم[٣]، وقد شكل الطلاق عبئاً كبيراً على الرجل بسبب النفقات المفروضة عليه، وقد حدد ابن الحاج نفقة الزوج على زوجته المطلقة سواء كانت حامل أو مرضعة، وقد اختلفت حسب الظروف المادية للرجل الغني عن الرجل الفقير، وذلك من ملبس وطعام وسكن وغيره[٤]، ومن الآثار الأخرى تعرض بعض النساء للاغتصاب[٥]، وهناك من الاشارات في النوازل إلى أن بعض النساء قد بيعت هي وأبنتها في السوق على أنهما مملوكتان، وثبت بعد ذلك بوجود عقد ثابت به وصف دقيق ومفصل بأنهن حُرّات بنات أحرار، فأفتى القاضي بمعاقبتها على موافقتها ورضائها على بيع نفسها على أنها أمة[٦]، ومن الواضح أن ظاهرة الطلاق للأفراد في المجتمع الأندلسي تأثرت بعدم التوازن بأحوال المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية طوال عصري ملوك الطوائف والمرابطين، مما ترتب عنه زيادة حالات الطلاق.

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٨٢، ٣٨٣.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٥٩.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٢٠؛ ٣١٩.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٤٩؛ ٤٠٩، ٤١٠.
(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٧٢.
(٦) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٥٠.

المرأة الأندلسية ودورها في المجتمع

أما عن بعض الأعمال والمهام التي مارستها المرأة الأندلسية داخل الأسرة والمجتمع، فقد قامت المرأة بدورها والمشاركة في كثير من المجالات، وكان الدور الأساسي هو تربية النشئ والإشراف على إدارة المنزل، فيشير أحد الكتاب المحدثين "بيير جويشارد الفرنسي" إلى أن المرأة الأندلسية- خاصة الحرة - كانت قادرة على غرس روح الشرف والنبل في أبنائها، كما زرعت فيهم الانتماء التام للأسرة أو الطبقة التي تنتمي إليها(١).

وبجانب ذلك قد مارست المرأة الأندلسية عدة مهن في مختلف أنواع الأنشطة الاقتصادية، فهناك بعض النساء اللواتي كن يستثمرن أموالهم في التجارة رغبة في التكسب (٢)، وقد عملت بعضهن مرضعة (٣)، وهي التي ترتزق من ارضاعها لأطفال الأثرياء، وكانت تتقاضى أجراً على ذلك، إذ كانت أجرة الرضاع على الزوج(٤)، وقد أشارت نازلة أن أجرها في الشهر من ثمانية إلى عشرة دراهم (٥)، ويلاحظ اختلاف عمل المرأة في الريف عن مثيلاتها في المدن، فأما عن مهنة الفلاحة فقد اختصت بها المرأة في القرية، وكانت المرأة الريفية تشارك زوجها في إعالة الأبناء بجانب مشاركتها في الأعمال الفلاحية

(1) Guichard,Pierrre: Structures Sociales "Orientales" et "Occidentales" dans la Espagne Musulmane, Paris, 1977, pp. 79 , 166.

(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٤٥٧؛ ٥١٩.

(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٩٠؛ ج٣، ٤٦٤، ٤٦٥.

(٤) الونشريسي: المعيار المعرب، ج٤، ص٩٢، ٩٣.

(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٤١٠.

والتجارية، فقد قامت إحداهن بتربية دود الحرير، وكل ذلك من أجل التودد لهم وحسن معاشرتهم[١].

كما ساهمت المرأة الأندلسية في العديد من الأعمال، وكثيراً ما نجد في تراجم العلماء أنهن نشأن في بيئة علم ودين[٢]، أو بيت علم ونباهة وأدب وخير صلاح[٣]، وقد كان للقابلة (الطبيبة) دور مهم في الحياة الاجتماعية بالأندلس من خلال دورها وأهميتها الطبية والقضائية، وذلك نحو ما تقدمه من خدمة المرضى ومداوتها، وتبين أيضاً حملهن من عدمه، وبما تؤديه وتقره كطبيبة شرعية بعد فحص النساء واثبات الحقائق التي تساعد القضاء للوصول إلى الحكم العادل، وبما أن البلوغ شرط من شروط عقود الزواج، وللتحقق من علامات البلوغ كان لابد من وجود طبيبات يقمن بفحص الحالة التي تعرض على القاضي، وقد استعان القاضي ابن الحاج ببعض الثقات من النساء لكشف اثبات وأثر البلوغ على المرأة، إذا شك في أنها زوجت قبل البلوغ، وقد وردت نازلة أن رجل زوج أخته فادعت عمتها أنها لم تبلغ، فأفتى ابن الحاج بتكليف امرأتين تقيتين من النساء، ليكتشفن أثر البلوغ عليها، فإن ظهر أنها بالغة تقدمتا بالشهادة عنده، ونفذ النكاح[٤]، وكذلك دور المرأة في اثبات العذرية بالنسبة للمرأة[٥]، وقد وردت نازلة أخرى أن رجلا تزوج امرأة، وزعم الزوج بعد الزواج أن المرأة

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٥١.
(٢) ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص٧٨؛ ج٣، ص٣٩١.
(٣) ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص١٦؛ ٣٤٣.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٥٣- ٥٧؛ ٢٩٥.
(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص ٤٥٢، ٤٥٣.

بها داء الفرج، وهو الرتق أو القرن أو العفل، فقام القاضي ابن الحاج بكتابة إنكارها وكلف امرأتين من النساء بالنظر فتقدمتا بالشهادة عنده(١) وبذلك كان للطبيبة دور مهم من خلال تكليفها القضائي نحو تحقيق العدالة والحفاظ على المنازعات الأسرية.

ثانياً: الرعاية الاجتماعية والأوقاف

قامت الأوقاف (الأحباس) باعتبارها من الصدقات الجارية بدور فعال في توفير الخدمات والرعاية الاجتماعية والصحية والتعليمية في المجتمع الأندلسي، كما ساهمت في تحقيق التكافل الاجتماعي والذي يعد من ضمن شريعة الإسلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ (٢).

وأمدتنا نوازل ابن الحاج بإشارات واضحة حول الأوقاف ودورها في المجتمع الأندلسي، ودور العامة والخاصة فيها، وكانت الأوقاف مرتبطة بخطة القضاء، ثم تطورت إلى أن صارت خطة قائمة بذاتها، وكان القائم على النظر فيها صاحب الأحباس.

واشار ابن الحاج في نوازله إلى تنوع الأوقاف في الأندلس خلال عصري الطوائف والمرابطين منها: الوقف على المساجد من بناء وترميم وعمارة وغيرها(٣)، بجانب الحبس على الأربطة والثغور التي يفد إليها ويسكنها الزهاد والمرابطين للمحافظة والدفاع على أراضيهم من العدو(٤)، وأيضاً الحبس على القلاع والحصون (٥)، وهناك

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٤٤٨، ٤٤٩.
(٢) سورة: آل عمران، الآية رقم (٩٢).
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٩٨؛ ٣٧٢.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢،ص ١٠٨؛ ج٣، ص٤٦٨؛ ٦٤٢.
(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٧٩، ٨٠؛ ج٣، ص ٦٣٨.

مصارف من الأحباس الخاصة كالهبات والصدقات والأوقاف على الزوجات والأبناء والأقارب بهدف تأمين حياة كريمة لهم [١]، وقد اهتم أهل الأندلس بتوفير الرعاية الاجتماعية للفقراء والمساكين، كرعاية الحكام للضعفاء والمساكين بالعطف عليهم واللين معهم[٢]، ونظراً للظروف الاجتماعية، فقد اهتم الأندلسيون بالعلم والعلماء وأجاز الفقهاء والآباء الهبة ووقف الكتب على الأبناء، وغيرهم من طلبة العلم لكي تعينهم على الدراسة، وأعتبر ذلك من أعمال البر، حيث ترد نازلة بأن أحد الآباء وهب لأبنائه جميع كتبه من الفقه والطب والأدب وغيرها من الكتب[٣].

ولم يغفل أيضاً الأعيان وأهل الثراء والبر عن المشاركة في رعاية الفقراء والمساكين، وكانت الأراضي الزراعية والدور أحد مصادر هذه الأوقاف[٤]، ويكون حبس الدار على سبيل الحيازة بأن يشهد المحُبس على تحبيسها، وأنه قد وهب الكراء مع تحبيسه للدار على إمام المسجد، ويشهد الإمام أنه عقد فيها الكراء مع الساكن فيها وتتم الحيازة فيها؛ بحيث يجتمع إشهاد الإمام وإشهاد المحُبس على القبض[٥]، ففي نازلة قام رجل من أهل الأندلس بكتابة وصية بأنه عند موته تكون داره صدقة تباع ويصرف منها على الفقراء والمساكين[٦]، ورجل أخر أوصى بثلث ماله بعد وفاته للفقراء والمساكين[٧]، وغيرها من الأوقاف على الفقراء والمساكين التي توفر لهم الغذاء أو الكسوة أو الإيواء[٨]، كما خصصت بعض الأحباس كالدور وغيرها للاهتمام

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٢٥؛ ١٣٧، ١٣٨؛ ١٤٧؛ ٢٠٣؛ ٢١٢.
(٢) ابن حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق: عبدالرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٥م، ص٧٧؛ ٩٢؛ ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٠٨.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٣٥، ٢٣٦.
(٤) ابن العطار: الوثائق والسجلات، ص٢٥؛ ١٨٢.
(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٦٧؛ ١٣٧، ١٣٨.
(٦) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٥٢.
(٧) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٦٠.
(٨) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٦٩.

بصحة المرضى ورعايتهم من قبل أهل الخير[١]، ومن الواضح أن أهل الأندلس قاموا بتخصيص هذه الأماكن ومصارفها لتوفير الأدوية والغذاء اللازم لهؤلاء الفئة المستضعفة.

كما أن هناك أشارت توضح حالات اليتم وما يتصل بها من إنفاق وحرمان، مما يبين الحالة الاجتماعية للأسرة الأندلسية من جهة وحالة الالتزام الأخلاقي من جهة أخرى، وقد قام أهل الأندلس بتخصيص أحباس تخدم اليتامى من أنواع الرعاية المختلفة، ووفروا لهم الحياة الكريمة بعد وفاة آبائهم[٢]، كما ساهمت المرأة في التصدق والوقف على اليتامى، وهناك من النساء من يتملكن العقارات والأراضي، والتي يستثمرونها بالكراء، ويتصدقن بها، ويشير ابن الحاج ضمن نوازله إلى العديد من الأمثلة التي توضح ذلك، ففي نازلة تصدقت امرأه من أهل الجزيرة الخضراء[٣] بجميع أملاكها من البساتين على الأيتام[٤].

---

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ٤٠٥؛ ج٣، ص٥٩٠.

(٢) ابن حيان: المقتبس، ت الحجي، ص٢١٠؛ ابن الحاج: نوازل، ج٢، ١٢١؛ ١٢٦؛ ١٤٧.

(٣) الجزيرة الخضراء (Algeciras):اسم معرب من كلمة جديرة (*Gadeira*)، وتعني الترجمة الحرفية لجزيرة هيرا (Hera)، أو خونو (Juno) بالإسبانية بمعنى الآلهة الأم للنصائح الجيدة، وأطلق عليها اسم أم حكيم لجارية طارق بن زياد الذي تركها بها أثناء الفتح فنسبت إليها، وتقع الجزيرة على مقربة من جبل طارق في أقصى جنوب الأندلس، وهي شرق من شذونة، وجنوب قرطبة، وتواجه مدينة سبتة على الساحل المغربي، وتحظى بمرسى آمن للسفن، وهو أيسر الموانئ الأندلسية للجواز إلى المغرب، وللجزيرة الخضراء سور حجارة عظيم البناء، وكانت في العصرالإسلامي مدينة وفيرة الخيرات، ابن الكردبوس: أبو مروان عبدالملك (ت٥٧٣هـ/ ١١٧٧م): تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، نصان جديدان، تحقيق: أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مدريد، ١٩٧١م، ص٤٥- ٤٧؛ ابن غالب: فرحة الأنفس، ص٢٩٤؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ٨، ٩؛ ٧٣- ٧٥؛ برزان مُيَّسر الحامد: التاريخ السياسي للجزيرة الخضراء في الأندلس من الفتح حتى السقوط(٩٢- ٧٨٠هـ/ ٧١٠- ١٣٧٨م)، الطبعة الأولى، ألفا للوثائق، قسنطينة، الجزائر، ٢٠١٩م، ص٣٧- ٤٠.

(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٨٧.

واهتم المسلمون أيضاً بتوفير الرعاية الاجتماعية والوقف على الفقراء والمساكين من اليهود والنصارى[١]. فضلاً عن الصدقات، وترد نازلة بأن رجلاً تصدق بداره على زوجته النصرانية شريطة أن تُسلم، فأسلمت[٢].

ولم يغفل ابن الحاج في أن يشير إلى بعض الأمراض والأوبئة في بلاد الأندلس ومن هذه الأمراض القروح[٣]، بجانب انتشار أمراض أخرى كالطاعون وداء الجذام والبرص والجنون وغيره[٤]، وقد اعتنى أهل الأندلس بمعالجة تلك الأمراض عن طريق الأطباء[٥]، واشار ابن الحاج إلى الإعاقة الذهنية، ووصفها باختلاط الذهن والخبل[٦]، وهي على عكس صحيح العقل ثابت الذهن[٧]، وبين ابن الحاج في نازلة أن فتاة زوجها والدها في سن مبكر لم يتعد عشر سنوات، فلما دخل بها زوجها" بقيت على خسارة عقلها ونفسها"[٨]، وأشار أيضاً إلى الاعاقة الجسدية، حيث ذكر في نازلة أن إمام مسجد عانى من إعاقة في النطق[٩].

ولم يقتصر ابن الحاج من خلال رصده للرعاية الاجتماعية والتي تمثلت في الهبات والصدقات والأوقاف وغيرها في نوازله، بل أشار

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٩٠.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٩٢، ٥٩٣.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٥٤.
(٤) ابن الحاج: نوازل ، ج٢، ص٣٩٧؛ ج٣، ص٤٧٩، ٤٨٠؛ ٥٩٠.
(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٤٥١؛ ٥٨٢.
(٦) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٨٦، ٨٧.
(٧) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٢٩.
(٨) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٦٤.
(٩) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٣٤.

إلى ظواهر من قبيل تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة في المجتمع الأندلسي؛ حيث ترد نازلة بخصوص شرعية توسعة مسجد ضاق بزواره على حساب منزل شخص محاذ له، فأفتى بجواز ذلك مقابل قيمة تعويض صاحب المنزل[١]، إلى جانب حبس الدواب والأسلحة لاستعمالها في الحروب، والجهاد في سبيل الله[٢].

كما بينت النوازل حقوق ارتفاق الجار بدون إضرار بحق جاره، فترد نازلة بأن شخصًا حاول تغيير موضع بابه ليطل على الزقاق، فأفتى الفقهاء بعدم جواز ذلك، لما فيه من اضرار واقعة على أهل الزقاق والصالح العام[٣]، وذلك دليل على مدى التعاون بين الجيران داخل المجتمع.

ومن الواضح أن الدافع وراء حبس وصدقات أهل الأندلس خلال عصري ملوك الطوائف والمرابطين، هو دافع ديني في التقرب إلى الله، بجانب دوافع أخرى علمية واجتماعية، حيث ساعدوا بذلك ما يملكونه من أموال ساهمت بشكل كبير في تحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي.

ثالثاً: العادات والتقاليد والأعراف

أشار ابن الحاج من خلال النوازل والفتاوى إلى العديد من العادات والتقاليد والأعراف الأندلسية، ومن هذه العادات اللثام عند المرابطين نسبة إلى الزي الذي اختاروه لأنفسهم وعرفوا به[٤]، وقد كانت الأعياد وما يلازمها من احتفالات تشارك فيها أغلب طبقات

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١١٣؛ ٤٠٣، ٤٠٤؛ ٤٠٥.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٨٩.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص ٢٨٥.
(٤) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص٢٨.

المجتمع الأندلسي[١]، ويعد عيد الفطر والأضحى من أعظم المناسبات الدينية في الإسلام[٢]، وقد حرص الأندلسيون على الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ﷺ [٣]، كذلك الاحتفال بيوم عاشوراء بالصيام والتوسعة على أنفسهم وأولادهم[٤]، بجانب الاحتفال بثبوت رؤية هلال شهر رمضان [٥] ويبادر الناس بإيقاد القناديل وإشعال النار لإعلام القرى المجاورة برؤيته [٦]، فضلاً عن بعض وسائل اللهو كالألعاب التي كانت تقام خلال هذه المناسبات من أجل الترفيه[٧]، وقد كان أهل الأندلس محبين للهو والترف والمجون وسماع الغناء [٨]، أما عن الأطعمة فقد تفنن أهل الأندلس في صنع ألوان الطعام وصارت موائدهم حافلة بالأنواع المختلفة من الأطعمة والأشربة والحلوى[٩]، وتكشف الاحتفالات بالأعياد وغيرها مدى تمازج شرائح المجتمع الأندلسي سواء من الخاصة أو العامة، والذي يعطي دليلاً على الطابع الرسمي والشعبي، إذ تزول فيه الفوارق الطبقية، والتمايزات الاجتماعية.

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص ٦٣٨.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٨٦.
(٣) ابن حيان: المقتبس، ت مكي، ص١٨٤، ١٨٥.
(٤) ابن حيان: المقتبس، ت الحجي، ص١٦٠.
(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ٨٣، ٨٤؛ ج٣، ص٦٣٨، ٦٣٩.
(٦) الونشريسي: المعيار، ج١٠، ص١٤٩.
(٧) ابن حيان: المقتبس، ت الحجي، ص٢٨؛ ٥٩؛ ١١٩؛ ٢٢٩؛ ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٤١٣.
(٨) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١١٣؛ ابن عذاري: البيان والمغرب، ج٣، ص١٨١-١٨٣.
(٩) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٥؛ ٢٥٠؛ ج٣، ص٤١٣؛ ٤٨٤؛ ٤٩٠.

أما عن الملابس؛ فقد انعكس الرخاء الاقتصادي على حياة المجتمع الأندلسي، واعتاد أهل الأندلس إلى ارتداء أنظف الثياب، وتأنق الرجال والنساء في ملابسهم[١]، لأنها تدل على جوانب ثقافية واجتماعية متنوعة، سواء في الفروق الاجتماعية والمادية في المجتمع الأندلسي، فضلاً عن ارتباطها بالعادات والتقاليد في الأعياد والاحتفالات والنفقات وغيرها.

ولم يغفل ابن الحاج في أن يشير إلى العديد من أزياء أهل الأندلس، ومن أنواع هذه الملابس منها لباس البدن وهي ألبسة داخلية وخارجية: ومن الملابس الداخلية منها كسوة الرجال للنساء وهي: الخز[٢] لفصل الربيع والخريف[٣] والقميص، والسروال، والخف[٤]، والمقنع كغطاء للرأس واتخذ الخمار من الصوف أو الأقمشة الحريرية[٥]، ومن ملابس الرجال الخارجية منها: الجُبَّة والسروال والغفارة[٦]

(١) المقري: نفح الطيب، ج١، ص٢٢٣؛ ج٣، ص٤٤٠، ٤٤١.
(٢) الخَزُّ هو ثياب من الحرير ومنه ألوان مختلفة، ابن سِيده: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت٤٥٨هـ/١٠٦٥م): المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج١، ص٣٨٣.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٩٠.
(٤) الخُف نوع من الأحذية تصنع من الجلد من ألوان مختلفة، ابن سِيده: المخصص، ج١، ص١٧٦؛ ٤١٠.
(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٤٠٩.
(٦) الغَفَارة وهي من ألبسة الرأس عبارة عن طاقية من الصوف تطوق الرأس وتشبه القلنسوة وتكسو رأس المرأة، ولكنها صارت من ألبسة الرجال، وكان منها اللون الأحمر والأخضر والأصفر، وشاع لبسها بين الأندلسيين، ابن سعيد: أبو الحسن علي بن موسى بن محمد المغربي الأندلسي(ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م): المُغرب في حُلَى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٣م، ج١، ص١٢٧؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص٢٢٣؛ رينهارت دوزي: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، الطبعة الأولى، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص٢٨٢.

وغيرها[١]، وهناك أيضًا من الملابس والأغطية التي كانت تستخدم فوق لباس البدن في فصل الشتاء من أجل الوقاية والحماية من البرد ونحوه منها: الفرو[٢]، والمحشوة، والملحفة، ولحاف الكتان المعطر، وغيرها[٣].

وقد رصد لنا أيضًا ابن الحاج في النوازل معلومات عن ملابس النساء في الأندلس وقدم لنا وصفاً منها: أن أحدهم جهز ابنته بالعديد من الملابس ومنها القميص الجرجاني والحريري وغيرها[٤]، ولم يغفل ابن الحاج في أن يذكر في نوازله إلى لباس وكسوة الأطفال: وورد ذلك في نازلة حول امرأة مطلقة ولها ابن من زوجها وكانت نفقة الطفل مفروضة على الزوج وتقديمها لابنه وتمثلت في عدة ملابس منها:" مَحشُوُ وفَرو، والغفيرة، والخز، والقميص، والجوارب، ونصف الملحفة، والمرفقة من الصوف، ومِخدَّةُ وغيرها[٥]، ومن الواضح أن الملابس تعطي إشارات مهمة عن العادات والتقاليد التي تسود في المجتمع، كما تعبر عن الفرد ومكانته الاجتماعية، وقد تميز المجتمع الأندلسي بتنوع أشكال الملابس وألونها، وشمل ذلك الرجال والنساء والأطفال على حد سواء.

رابعاً: بعض مظاهر الانحلال الخلقي في المجتمع الأندلسي

شهد المجتمع الأندلسي خلال عصر ملوك الطوائف بعض مظاهر الانحلال الخلقي الذي يرجع إلى انتشار المفاسد والمنكرات[٦]،

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٤٤١.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٤١؛ ٩٠؛ ابن سِيده: المخصص،ج١، ص٣٨٨.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٩٠، ٩١؛ ابن سِيده: المخصص،ج١، ص٣٨٨، ٣٨٩.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٧٥، ٣٧٦.
(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٤١٠، ٤١١.
(٦) ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الظاهري(ت٤٥٦هـ/١٠٦٤م): رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١م، ج٣، ص١٧٤؛ ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص٧٧؛ آنخِل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، تقديم: سليمان العطار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١م، ص١٠١.

ويؤكد ابن عبدون قائلاً:" فإن الناس قد فسدت أديانُهم"(١)، وكشف لنا ابن الحاج من خلال النوازل والفتاوى، بعض الآفات والمنكرات والمفاسد الهدامة التي تعرض لها أفراد من المجتمع الأندلسي، وهي التي لا يقرها الشرع، والتي انعكست بشكل كبير على أوضاع المجتمع ومنها ظاهرة: تفشي اللصوصية والسرقة والتي كانت من نتائج تردي الوضع الاجتماعي(٢)، كحوادث قطع الطريق وسرقة الدواب التي أدت إلى انتشار الذعر والخوف(٣)، وكانت هذه الظاهرة منتشرة في القرى والمدن الأندلسية على حد السواء، ويؤكد المقري على هذه الظاهرة قائلاً: " ولا تكاد في الأندلس تخلو من سماع دار فلان دُخلت البارحة، وفلان ذبحه اللصوص على فراشه"(٤)، ومن كثرة السرقة وُصِف بعض اللصوص بأنه " سلابُ مُحارِبُ"(٥)، وفي موضع آخر أشار ابن الحاج في نازلة إلى اقرار اللصوص بالسرقة(٦)، ونظراً لسوء الأوضاع وشعور أهل الأندلس بعدم الأمان على أرواحهم اضطروا إلى تحصين وإصلاح الأسوار والدروب للحفاظ على منازلهم تحسبا لتحركات اللصوص فابن عذاري يذكر:" فكانوا يتحارسون الليل كله ويكابدون من روعات طراقه مالا يكابد أهل الثغور من العدو"(٧)، ويبدو ذلك راجع إلى الحروب والفتن والحروب الداخلية واضطراب حالة الأمن داخل المجتمع خاصة في أوقات ضعف السلطة، يؤدي غالباً إلى انتشار هذه الظاهرة وغيرها، ومما لاشك فيه أن هذه الأزمات

(١) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص٦٠.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٨٢؛ ج٣، ص٥٧١؛ ٥٧٣؛ ٥٨٤.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ١٢٠، ١٢١.
(٤) المقري: نفح الطيب، ج١، ص٢١٩.
(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٧٣.
(٦) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٨٦؛ ج٣، ص ٥٧١، ٥٧٢.
(٧) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٢٢٦..

والمحن أثرت على المجتمع بكل طبقاته، ولكن أثرها على العامة كان أكبر بسبب ضعف دخلها.

وقد تطرق ابن الحاج أيضاً إلى ذكر المفاسد الاجتماعية وبعض الانحرافات في المعاملات ومنها: ظاهرة الغش في تجارة السلع وبيعها[١]، مما استوجب عزل بعض الأشخاص من مهامهم بسبب ذلك[٢]، فضلاً عن انتشار جرائم القتل العمد[٣]، بجانب ظاهرة تخلي الأمهات عن أبنائهم، وذلك راجع إلى خشية افتضاح أمرها وقتل طفلها من الزنا[٤]، وكذلك في امرأة أخرى تزوجت في عدتها، مما استوجب فسخ عقدها[٥]، فضلاً عن الزواج بطرق غير شرعية[٦]، كوطأ الرجل الأمةَ وابنتها[٧]، والاستغراق في الملذات الجسدية والوقوع في الزنا[٨]، وتعدد الزوجات[٩]، وشرب الخمر[١٠]، لدرجة يصل معها صاحبها للإغماء من كثرة شربه[١١]، وقد حارب الفقهاء هذه المنكرات ونهوا عن شرب الخمر وغيره[١٢]، ومن القضايا المخالفة للشريعة الإسلامية،

(١) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٦٢؛ ج٣، ٦٧٧.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٦٠، ١٦١.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣١٣؛ ج٣، ص ٦٥٩، ٦٦٠.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٤٨.
(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٦٦.
(٦) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٦١.
(٧) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٥٨.
(٨) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٢٢.
(٩) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٣٤٧.
(١٠) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٤٧٦؛ ٥٧٤.
(١١) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٧٠.
(١٢) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص٢٦؛ ٤٥.

قضية رجلين ادعى كل منها نكاح امرأة في آن واحد، مما استوجب فسخ العقد(١)، بالإضافة إلى قضايا الجمع بين الأختين(٢).

وهناك من الظواهر التي تشير إلى العداوة والمخاصمات بين الأقارب ومختلف شرائح المجتمع الأندلسي(٣)، أو العنف مع الأقارب والجيران(٤)، مما يؤدي إلى القتل أحيانًا (٥) أو ضد رجال السلطة ، وذلك فيما تعرض له أعوان أحد القضاة من ضرب وإشهار السلاح في وجوههم(٦)، كذلك عقوق الوالدين(٧)، والتعامل بالربا (٨).

ومن جهة أخرى تمدنا النوازل إلى بعض المعتقدات الغيبية التي اعتقد بها الأندلسيون، ومنها: ممارسة السحر والشعوذة والاعتقاد في السحرة والكهنة والمنجمين، وهؤلاء أطلق عليهم فئة الحسابين، وتدعي أنها تعلم الغيب، ترتب عليه دفع الناس الأموال إليهم، مما أدى إلى الاضرار بالمسلمين وإرهابهم(٩)، وقد أفتى الفقهاء بأنها اعتقادات ضالة ولقد حرمها الإسلام وأبطلها(١٠)، ومن الظواهر الأخرى، تعمد أحدهم بالإفطار في نهار رمضان(١١).

---

(١) ابن سهل: الأحكام الكبرى، ج١، ص٢٠٨؛ ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٨٧؛ ٣٥٣.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٥٨، ٥٥٩.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٢٤؛ ١٣٨، ١٣٩؛ ٢٤٥، ٢٤٦؛ ٣٧٩.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٦٦٢، ٦٦٣.
(٥) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص ٢٤٣.
(٦) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٦٢، ١٦٣.
(٧) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٥.
(٨) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٨٣.
(٩) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص٢٤١؛ ٢٤٢؛ ٦٧٠، ٦٧١.
(١٠) ابن رشد : فتاوى، ج١، ص٢٤٩؛ ٢٦١؛ ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٧٨، ٥٧٩.
(١١) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٧٣.

ومما لا شك فيه أن الحرية الفكرية في عصر ملوك الطوائف ساهمت في ظهور كثير من العقائد الشيعية، ولم تكن الأندلس تتمتع بها في أيام الخلافة الأموية[١]، وهناك ملامح حول المذهبية الشيعية في العلاقات الاجتماعية، حيث ترد نازلة حول قضية الخلاف وفتوى الفقهاء في إرادة رجل يريد الزواج من فتاة من أهل الشيعة، ويخاف على نفسه من عنت أهله[٢]، وقد افتى الفقهاء بالتشديد على محاربة الزنادقة، حتى لا ينتشر أمرهم، ففي نازلة وصل الأمر إلى أن بعض الأشخاص سب الذات الالهية والتكلم في صفات - الله تعالى - بكلام لا يليق[٣].

- تعالى الله - عن ذلك علوًا كبيرًا، فضلاً عن التكلم في الأنبياء بما لا يليق في حقهم، والتنقيص من قيمة النبي ﷺ - حاشاه- بكلام لا يليق في حقه[٤].

ومن خلال هذه الاشارات يتبين عدة أسباب منها؛ أن أثر انتقال السلطة من عصر إلى آخر نتج عنه تغير في المستوى المعيشي لبعض الأفراد وتغير في الأوضاع الاجتماعية في بلاد الأندلس، إما لاضطرابات سياسية وفتن وحروب داخلية، وانهيار وحدة البلاد وانعدام الأمن، أو الفقر وتعاقب المجاعات أو غلاء الأسعار وانعدام الأقوات، وتطاول الفسدة وتفاقم اللصوصية، ويبدو ذلك راجع منذ الفتنة

(١) محمود علي مكي: التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ص٤٢.
(٢) ابن الحاج: نوازل، ج٢، ص١٠٩، ١١٠.
(٣) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٧٦، ٥٧٧.
(٤) ابن الحاج: نوازل، ج٣، ص٥٧٤، ٥٧٥.

القرطبية الكبرى والتي كانت من جراء الصراع الدامي بين الأندلسيين والصقالبة والبربر الطارئين في أعقاب سقوط الدولة العامرية حتى نهاية الخلافة الأموية[1]، بجانب اهمال وانقسام ملوك الطوائف على الولايات وراحوا يتنافسون في مظاهر الترف والأبهة[2].

ومن الملاحظ هنا أن الفقهاء كان لهم دور هام في تقويم المجتمع الأندلسي خلال هذه الحقبة التاريخية، من خلال محاربة العادات السيئة والتصدي لها، وأخذوا موقفًا معاديًا، وحاربوها، وعالجوا أمورها، وساعدهم في ذلك المكانة الاجتماعية، فكانوا أكثر مرونة وملائمة للعصر من قضاتهم الذين كانوا يستفتونهم وينتظرون آراءهم للأخذ بها وتطبيقها، ويبدو ذلك كان راجعًا إلى أن هذه الحقبة التاريخية شهدت تغيرات اجتماعية واقتصادية صحبت التغير السياسي.

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٩٠.

(٢) ابن عذاري: البيان والمغرب، ج٣، ص١٨١- ١٨٣.

الخاتمــة

أحمد الله أن وفقني لإنهاء هذه الدراسة، وبعد الانتهاء أوجز أهم النتائج على النحو الآتي:

١- بينت الدراسة أن النصوص التي أوردها ابن الحاج في نوازله، عبرت عن مظهر هام من مظاهر التحولات السياسية داخل المجتمع الأندلسي خلال الحقبة التاريخية، من خلال التفاوت والتدرج الطبقي، والمستوى المعيشي من خلال تعدد الفئات والطوائف وأصحاب المهن والحرف والمهمشين ومدى إسهاماتهم الحضارية بما حوته من دلالات اقتصادية وسياسية وثقافية، والتي كانت مرتبطة بالتشريعات والأعراف المنظمة داخل بلاد الأندلس، وهي من الأمور المهمة أثناء قيام أنظمة سلطانية جديدة تتجدد معها العقود والوثائق والأحكام بحسب ظروف العصر.

٢- كشفت الدراسة عن الدور البارز للعلماء والفقهاء والقضاء واسهاماتهم الدينية في الاصلاح ومدى تدخلهم في حسم القضايا المختلفة في الأسرة الأندلسية أو بين أفراد المجتمع الأندلسي، والتصدي بالمواقف الرافضة لسياسة حكام الطوائف والمرابطين، خاصة فيما يتعلق بالآفات والمفاسد في المجتمع، بالإضافة إلى تأثير دور المرأة الأندلسية وحضورها القوي في الحياة الأسرية وكثير من الأعمال التي مارستها داخل المجتمع.

٣- كشفت الدراسة عن عزوف بعض الرجال عن الزواج بالحرائر خاصة لأن المغالاة في المهور والنفقات والشروط في عقود الزواج وملحقاته كانت عالية عند بعض الأسر الأندلسية، وأحيانًا لا توافق الظروف المادية للرجل بسبب التكاليف الباهظة.

٤- أثبتت الدراسة كثرة شيوع طلاق المرأة في المجتمع الأندلسي، والتي كانت في الغالب مدفوعة بالكراهية، وأحيانًا بسبب العنف ضدها وإضرار زوجها لها، أو غياب الزوج، أو تعدد الزوجات، أو إسراف النساء في مطالبهن، مما جعل المرأة المطالبة في الحصول على هذا الحق من خلال التعبير عن رأيها، وإثبات رغبتها في الطلاق أو الخلع.

٥- بينت الدراسة قيام الأندلسيون بدور هام وفعال في توفير الخدمات والرعاية الاجتماعية والصحية والتعليمية في المجتمع الأندلسي من هبات وصدقات وأوقاف، والتي ساهمت في تحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي والذي يعد من ضمن شريعة الإسلام. بجانب التسامح الديني بين المسلمين والنصارى، في شئون ومظاهر الحياة الاجتماعية، وذلك انطلاقاً من تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

انتهى بتوفيق الله، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

أولاً: المصادر العربية

- ابن الأبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي البلنسي(ت٦٥٨هـ/١٢٦٠م):

(١) التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: بشار عواد معروف، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١١م.

(٢) الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.

(٣) معجم أصحاب القاضي أبي على الصدفي، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

- ابن أبي أصيبعة: موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة(ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م):

(٤) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.

- ابن بسام: أبو الحسن علي الشنتريني(ت٥٤٢هـ/١١٤٧م):

(٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

- ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبدالملك(ت٥٧٨هـ/ ١١٨٢م):

(٦) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تحقيق: بشار عواد معروف، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٠م.

- **ابـن الحـاج:** أبـو عبـدالله محمـد بـن أحمـد بـن الحـاج التجيبـي القرطبي(ت٥٢٩هـ/١١٣٤م):

(٧) نوازل ابن الحاج التجيبي، دارسة وتحقيق: أحمد شعيب اليوسفي، الطبعة الأولى، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تطوان، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

- **ابن حزم:** أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الظاهري (ت٤٥٦هـ /١٠٦٤م):

(٨) رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١م

- **الحميري:** أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم(ت ٨٩٩هـ/ ١٤٩٤م)

(٩) صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر: ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

- **ابن حيان:** أبو مروان حيان بن خلف بن حسين(ت٤٦٩هـ/١٠٧٦م):

(١٠) المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق: عبدالرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٥م.

(١١) المقتبس: حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت،١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

- **الخشني:** أبو عبدالله محمد بن الحارس بن أسد(ت٣٦١هـ/٩٧٢م):

(١٢) قضاة قرطبة وعلماء افريقية، تحقيق: السيد عزت العطار الحسيني، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م.

- **ابن الخطيب:** لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م):
(١٣) أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق: أحمد مختار العبادي، محمد إبراهيم الكتاني، القسم الثالث، دار الكتاب، الدار البيضاء ، ١٩٦٤م.
- **ابن خلدون:** عبدالرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م):
(١٤) العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهرس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- **ابن خلكان:** أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد إبراهيم الإربلي (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م):
(١٥) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ١٩٠٠م.
- **ابن خير الإشبيلي:** أبو بكر محمد بن خير بن عمر(ت ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م):
(١٦) فهرسة ابن خير الإشبيلي، تحقيق: بشار عواد معروف، محمود بشار عواد، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠٠٩م.
- **ابن رشد:** أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي المالكي (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م)
(١٧) فتاوى ابن رشد، تحقيق: المختار بن الطاهر التليلي، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، السفر الأول، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- **الزجالي:** أبو يحيى عبيد الله بن أحمد القرطبي(ت ٦٩٤هـ/١٢٩٥م):
(١٨) أمثال العوام في الأندلس، مستخرجة من كتابه "ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام"، تحقيق وشرح ومقارنة: محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشئون الثقافية والتعليم الأصلي، فاس، المملكة المغربية، بدون تاريخ.
- **ابن أبي زرع:** أبو الحسن علي بن محمد الفاسي(كان حياً في ق٨هـ/١٤م):
(١٩) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م.
- **ابن سعيد:** أبو الحسن علي بن موسى بن محمد المغربي الأندلسي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م):
(٢٠) المُغرب في حُلَى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٣م.
- **ابن سهل:** أبو الأصبغ عيسى بن سهل بن عبدالله الأسدي الجياني (ت٤٨٦هـ/١٠٩٣م):
(٢١) الإعلام بنوازل الأحكام، المعروف بالأحكام الكبرى، تحقيق: نورة محمد عبدالعزيز التويجري، الطبعة الأولى، دون دار نشر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- **ابن سِيده:** أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت٤٥٨هـ/١٠٦٥م):

(٢٢) المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

- **ابن عبدون التجيبي:** محمد بن أحمد بن عبدون الإشبيلي(ت قبل ق ٦هـ/١٢م):

(٢٣) ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال، نصوص وترجمات المجلد الثاني، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م.

- **ابن عذاري:** أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي(كان حياً سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م):

(٢٤) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: كولان وليفي بروفنسال، الطبعة الثالثة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الجزء الأول والثاني والثالث، ١٩٨٣م.

- **ابن العطار:** محمد بن أحمد الأموي(ت ٣٩٩هـ/١٠٠٨م):

(٢٥) كتاب الوثائق والسجلات، اعتنى بتحقيقه ونشره: شالميتا، كورينطي، مطابع رايكار للطباعة العربية، مجمع الموثقين المجريطي المعهد الأسباني للثقافة، مدريد، ١٩٨٣م.

- **ابن غالب:** محمد بن أيوب الغرناطي(كان حياً في ق٦هـ/ق١٢م):

(٢٦) نص أندلسي جديد قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة، نشر: لطفي عبدالبديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة، المجلد الأول، الجزء الثاني، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

- **ابن فرحون**: برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري(ت٧٩٩هـ/١٣٨٨م):

(٢٧) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

- **القاضي عياض:** أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت٥٤٤هـ/١١٤٩م):

(٢٨) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ضبطه وصححه: محمد سالم هاشم، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م؛

(٢٩) الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق: ماهر زهير جرار، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- **ابن الكردبوس:** أبو مروان عبدالملك (ت٥٧٣هـ/١١٧٧م):

(٣٠) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، نصان جديدان، تحقيق: أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مدريد، ١٩٧١م.

- **مجهول:**

(٣١) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار، عبدالقادر زمامة، الطبعة الأولى، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

- **المراكشي:** محي الدين عبدالواحد بن علي(ت٦٦٩هـ/١٢٧٠م):

(٣٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦.

- **المقري:** أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد التلمساني (ت١٠٤١هـ/١٦٣١م):

(٣٣) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

- **ابن منظور:** جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الإفريقي المصري (ت٧١١هـ/١٣١١م):

(٣٤) لسان العرب، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت،١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

- **النُبَاهي:** أبو الحسن علي بن عبدالله بن محمد المالقي(كان حياً سنة ٧٩٣هـ/١٣٩١م):

(٣٥) تاريخ قضاة الأندلس، المسمى كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق ونشر: لجنة إحياء التراث العربي، الطبعة الخامسة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

- **الونشريسي:** أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبدالواحد التلمساني المالكي (ت٩١٤هـ/١٥٠٨م):

(٣٦) المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف: د محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية، الرباط، المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

ثانياً: المراجع العربية

- **إبراهيم القادري بوتشيش(دكتور):**

(١) مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٧م.

- **برزان مُيَّسر الحامد:**
(٢) التاريخ السياسي للجزيرة الخضراء في الأندلس من الفتح حتى السقوط(٩٢- ٧٨٠هـ/ ٧١٠- ١٣٧٨م)، الطبعة الأولى، ألفا للوثائق، قسنطينة، الجزائر، ٢٠١٩م.
- **حسن علي حسن(دكتور):**
(٣) الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م.
- **حسين مؤنس(دكتور):**
(٤) شيوخ العصر في الأندلس، الطبعة الثانية، دار الرشاد، القاهرة، ١٩٩٧م.
- **حسين يوسف دويدار(دكتور):**
(٥) المجتمع الأندلسي في العصر الأموي (١٣٨- ٤٢٢هـ/ ٧٥٥- ١٠٣٠م)، الطبعة الأولى، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- **صلاح خالص (دكتور):**
(٦) اشبيلية في القرن الخامس الهجري دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في إشبيلية وتطور الحياه الأدبية فيها(٤١٤- ٤٦١)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٥م.
- **كمال السيد أبو مصطفى(دكتور):**
(٧) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، ١٩٩٦م.

- محمد عبدالله عنان:
(٨) دولة الإسلام في الأندلس، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- محمد عبدالوهاب خلاف (دكتور):
(٩) تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- محمود علي مكي (دكتور):
(١٠) التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

(ثالثًا) المراجع الأجنبية المعرَّبة

- آنخِل جنثالث بالنثيا:
(١) تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، تقديم: سليمان العطار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١م.
- رينهارت دوزي:
(٢) المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، الطبعة الأولى، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

رابعًا: المراجع الأجنبية

(1) Guichard,Pierrre: Structures Sociales " Orientales" et " Occidentales " dans la Espagne Musulmane, Paris, 1977.
(2) Levi- Provencal: Histoire de La Espagne Musulmane, 3 tomes, paris, 1967.
(3) Antonio Preito R Vives : Los Reyes de Taifas, Madrid, 1926.